

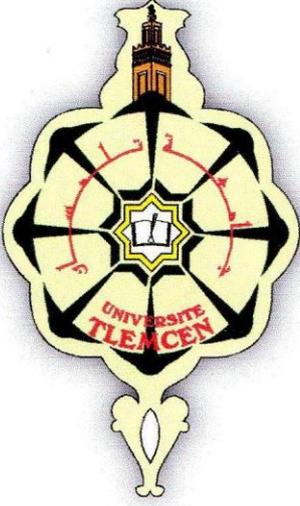
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية الآداب واللفـات

قسم اللغة العربية وآدابها



مذكرة لنيل شهادة الماجستير

تخصص: الدراسات اللغوية بين القديم والحديث

الجهود الصوتية في رسائل ابن حزم الأندلسي

إشراف الأستاذ الدكتور:

إعداد الطالب:

المهدي بوروية

محمد بوعلي

أعضاء لجنة المناقشة:

| | | | |
|-------|--------------|----------------------|------------------------|
| رئيسا | جامعة تلمسان | أستاذ التعليم العالي | - عبد الجليل مرتاض |
| مشرفا | جامعة تلمسان | أستاذ التعليم العالي | - المهدي بوروية |
| عضوا | جامعة تلمسان | أستاذ التعليم العالي | - عبد الجليل مصطفاوي |
| عضوا | جامعة تلمسان | أستاذ محاضر "أ" | - أحمد قريش |
| عضوا | جامعة تلمسان | أستاذ محاضر "أ" | - عبد الحكيم والي دادة |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو حيان الأندلسي مادحا ابن حزم:

« كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه ونسب وجدل
ويتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم
القديم من المنطق والفلسفة وله في بعض تلك الفنون كتب
كثيرة»¹

وقال ابن حزم في أصدق كلمة عن نفسه:

مَنَايَ مِنَ الدُّنْيَا عُلُومٌ أَبْثَغَهَا وَأَنْشُرَهَا فِي كُلِّ بَادٍ وَحَاضِرٍ
دُعَاءٌ إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَأْسَى رِجَالٌ ذَكَرَهَا فِي الْمَحَاضِرِ²

¹ - أبو الحسن علي ابن بسام الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق احسان عباس، القسم الأول، دار الغرب الاسلامي، 103/1.

² - د. احسان عباس، رسائل ابن حزم، 6/1.

الاهداء

إلى روح والدي الكبير جدِّي
الذي كان يحب العلم والمعرفة
ويشجع أبناءه وأحفاده باستمرار
على طلب العلم.

أهدي هذا الجهد.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

الحمد لله حمدا كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا، والصلاة والسلام على المصطفى الذي أرسله الله بالحق مبشراً ونذيراً وشاهداً وهادياً وسراجاً منيراً وعلى آله وصحبه الأخيار الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وبعد: فإن للعرب القدماء جهوداً مشكورة في الدراسات الصوتية تنم عن فهم مبكر ودقيق لطبيعة الصوت اللغوي؛ فقد اهتموا كثيراً بالكلام المنطوق الشفاهي لكونه يمثل الأصل في اللغة، وجاء القرآن الكريم فتلقته آذان الصحابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم سماعاً وتناقلوه مشافهة عن طريق التواتر فثبت نطق أصوات اللغة العربية.

ولذلك عكف علماء القرون الأولى على دراسة أصوات لغتهم، وتمكنوا من وصفها، ووضعوا القواعد والقوانين لتلك الأصوات وخصائصها وعلاقاتها مع بعضها، يتضح ذلك فيما فعله أبو الأسود الدؤلي (ت69هـ) بملاحظاته الذاتية عندما بادر إلى إعراب القرآن الكريم، ثم جاء الخليل بن أحمد رحمه الله (ت175هـ) فأسس القاعدة الصوتية الأولى للغة العربية بما أحدثه من تقسيم لأصوات اللغة وتحديد لمخارجها معتمداً على حسه الصوتي وثقافته العلمية الكبيرة وبذلك يكون قد فتح الطريق لمن جاء بعده، فسار على دربه العلماء الذين تتابعوا بعده يدفعهم في ذلك إرتباطهم بكتاب الله تعالى قراءة وتجويداً وفهماً وتفسيراً، وانضم إلى هذا الاجتهاد العلماء المجودون والقراء والفقهاء والفلاسفة والبلاغيون، وحفلت مؤلفاتهم بجهود صوتية معتبرة فلسيوية إجتهد مئثر في الكتاب فقد قسم أصوات العربية بحسب مخارجها وأحيازها وقرن أصوات

العربية بصرفها ونحوها، ولابن جنّي الباع الأطول في الدرس الصوتي فقد توسع فيه كثيراً، وشكلت جهوده القاعدة الكبرى للدرس الصوتي العربي فقد ربط الصوت بالدلالة ووقف على التباين الّلّهي وتنوع الأداء في القراءات، وتتبع جهود العلماء عبر الأحقاب، ولم يخل زمان ولا مكان في تاريخ الحضارة الإسلامية من إجتهدات في أصوات اللغة العربية.

وكان للأندلسيين حظهم الوافر في هذا الاجتهاد فقد ترك صاحب بن عباد (ت 385هـ) الذي تأثر بمنهج الخليل أثراً طيباً في مجال ترتيب أصوات العربية وأبدى ابن سيده براعة كبيرة وهو يرتب معجمه المخصص، ويأتي ابن حزم ليشكل في الثقافة الصوتية للغة العربية بصمته، فقد كان للرجل إطلاع واسع ومعارف كبيرة للمجهودات العربية في أصوات اللغة العربية.

وإنّما يأتي إهتمامه بالدرس الصوتي كجزء من إجتهداه العام في علوم العربية، وقد جنح في إجتهداه إلى الجانب الوظيفي، لأنه كان يحمل مشروعاً ثقافياً حضارياً تمثل في مذهبه الديني الظاهري وطرحه الفكري والفلسفي، فعالج الجوانب الصوتية في اللغة من باب مساهمتها في الأداء الدلالي للنصوص العلمية في مختلف المعارف التي حفلت بها رسائله، فقسم الصوت قسمين، قسم يدل على معنى وقسم لا يدل على معنى « فالذي لا يدل على معنى لا وجه للاشتغال به لأنه لا يحصل لنا منه فائدة».

لقد تعامل ابن حزم مع الجوانب الصوتية في اللغة بفهم شمولي حيث إستوعب أهمية المستوى الصوتي في تشكيل اللغة إلى جانب النحو والصرف والبلاغة وله في ذلك آراء قيمة تجعل من جهوده عملاً متميزاً بالأصالة والجدة وهذا ما حاولت معالجته في هذه المذكرة.

لقد كانت جهود ابن حزم العلمية محط دراسة وتحليل عند العديد من الدارسين كل في اختصاصه، ونالت جهوده اللغوية عناية بعض العلماء العرب أمثال سعيد الأفغاني في كتابه "نظرات لغوية عند ابن حزم"، وكتاب "النظرية اللسانية عند ابن حزم" لنعمان بوقرة، كما سجلت العديد من الأطروحات الجامعية في ظواهر أدبية وفكرية ولغوية في كتاباته منها رسالة دكتوراه للأستاذ محمد بن أعمار من جامعة تلمسان تناول فيها جهوده النقدية والفكرية، إلا أن مجهوداته الصوتية المتناثرة في رسائله كانت الأقل حظاً من العناية وبقيت - في حدود علمي - خاماً تحتاج إلى من يجمعها ويتعهدا بالدراسة والتحليل ويبرز طبيعتها، وهذا ما أشار إلي به أستاذي الفاضل الدكتور المهدي بوروبة، الذي حَبَّب إلي البحث في هذه الشخصية العلمية الكبيرة وحمَّسني على ضرورة تتبع مجهوداته الصوتية. زيادة على أنني كنت وما زلت أحب الاطلاع الجيد على تراثنا الصوتي العربي في مشرقه ومغربه.

لقد أيقنت وأنا أتصفح رسائل ابن حزم في مرحلة تلمس المادة العلمية أن ابن حزم منارة علمية، ومحطة في تاريخ حضارتنا العربية الإسلامية وهذا الأمر شجعني كثيراً على البحث فيما خلفه من إجتهد في الدراسات الصوتية، وقد يبقى موضوع إجتهد اللغوي بصفة عامة طموح المستقبل.

وقد سرت في عرض مباحث هذه المذكرة وفق خطة إنبثقت من تصنيف المادة المجموعة تمثلت في مدخل، وفصول ثلاثة، وخاتمة.

تناولت في المدخل: بوادر الدرس الصوتي عند العرب بدءاً بالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) الذي طالعنا بكتاب العين والذي يعد مرجعاً صوتياً مهماً للدارسين، وما أضافه تلميذه سيبويه (ت180هـ) في مؤلفه الكتاب من جهود صوتية لا تزال موضع اهتمام العلماء العرب وغير العرب نظراً لدقتها

وشموليتها واتساعها، ثم ما كتبه عالم زمانه ابن جنّي (ت392هـ) في كتابيه (سر صناعة الإعراب، والخصائص) من معلومات صوتية مهمة جدا، ورسالة ابن سينا (ت428هـ) وما جاء به ابن رشد في مجال التنغيم ونظام المقاطع ثم بينت فضل القراء وعلماء التجويد الأندلسيين الذين ترعرعت في حجورهم الدراسات الصوتية للغة القرآن الكريم.

وأفردت الفصل الأول للحديث عن شخصية ابن حزم وثقافته وآرائه العلمية وآثاره فبينت أن ابن حزم شخصية مميزة، فهو عالم في المقام الأول ومفكر كبير وفقه صاحب مذهب، ورجل سياسة، يملك دراية واسعة لمختلف العلوم التي شاعت إلى عهده والتي سبقت زمانه، فهو دائرة معارف، وقد حاولت إبراز طبيعة شخصيته معتمدا على أفكاره وأقواله التي حفلت بها كتبه.

وخصصت الفصل الثاني للحديث عن الجهود الصوتية التي أثارها ابن حزم في رسائله، فتتبع جميع الحالات التي أثارها والتي ارتبطت بالجوانب الوظيفية للغة، فبينت جهوده في فيزيائية الصوت فتحدث عن جهازي النطق والسمع الذين ذكرهما ابن حزم متطرقا إلى العناصر الأساسية المكونة بهما موضحا دورهما في إصدار الخطاب اللغوي للجهاز الأول واستقبال الخطاب لجهاز السمع، وأبرزت جهوده في تعريف الصوت وأقسامه، وأنواعه، والجوانب الصوتية في الكلام (الاسم والفعل والحرف) وحلّلت آراءه وفق النصوص التي أوردها في هذه التعريفات، وقد كان ابن حزم موضوعيا إلى حد كبير وهو يعالج هذا الجانب.

أما الفصل الثالث فأخلصته للحديث عن جهود ابن حزم الصوتية في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة وقد عملت على شرح مكونات الجهازين منطلقا من مصطلحات ابن حزم التي تشابهت مع مصطلحات علماء الأصوات القدامى

والمحدثين فعمدت إلى التوسع في شرحها ذاكرا الأصوات التي تصدر عن مخارج أعضاء جهاز النطق.

ثم ختمت المذكرة بخاتمة قدمت فيها خلاصة الدراسة التي أجريتها على مجهودات ابن حزم في المجالات الصوتية.

وكانت عدتي في إنجاز هذه المذكرة طائفة من المصادر والمراجع القديمة والحديثة التي تنوعت بتنوع مباحثها فمنها مؤلفات ابن حزم "رسائله"، وكتاب "الإحكام في أصول الأحكام"، و"الكتاب" لسيبويه و"سر صناعة الإعراب" و"الخصائص" لابن جنّي، و"أسباب حدوث الحروف" لابن سينا، و"تلخيص الخطابة" لابن رشد وكتاب غانم قدور الحمد "الدراسات الصوتية عند علماء التجويد"، وكتاب "علم الأصوات بين القدماء والمحدثين" للدكتور حسن مزيان، وكتاب "المدارس الصوتية عند العرب النشأة والتطور" للدكتور علاء جبر محمد، وكتاب "ظاهرة ابن حزم الأندلسي، نظرية المعرفة ومناهج البحث" للأستاذ أنور الزعبي، ورسالة الدكتوراه للأستاذ المهدي بوروبة الموسومة: "ظواهر التشكيل الصوتي عند النحاة واللغويين العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري".

أما المنهج الذي إحتكمت إليه في عرض مادة هذه الدراسة فكان وصفيّاً إحصائياً حيث قمت فيه بعرض الجهود الصوتية كما أوردها ابن حزم متناثرة في رسائله ثم عمدت إلى التحليل والمقارنة في أحيان كثيرة ذلك أنّ طبيعة الموضوع فرضت عليّ هذا النوع من المعالجة.

والحق إن هذا الاختيار الذي أثلج صدري ومكنني من معرفة علم من أعلام الحضارة العربية في بلاد الأندلس والوقوف على جوانب هامة من الدرس الصوتي العربي ما كان ليحدث لولا فطانة أستاذي القدير الدكتور المهدي بوروبة

والذي تعهدني منذ أن تتلمذت عليه في مادة الصوتيات إلى يومنا هذا بالمزيد من التوجيه والعناية وقد كان له فضل كبير في توجيه هذا العمل وتصويبه وتصحيحه، فله منِّي كل الاحترام والتقدير، والله أسأل أن يرزقه الصحة والعافية وطول العمر حتى يبقى ذخرا للجامعة في مجال البحث العلمي وقدوة يحتذى بها في الجدية والاخلاص، وسأبقى محتفظا له بذكرى طيبة.

والله من وراء القصد، والله الحمد والمنة، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

تلمسان في: 1434/01/04 هـ الموافق لـ 2012/11/18 م.

الطالب: محمد بوعلي.

المدخل:

**إبن حزم وبيادر الدرر
الصوتي عند علماء
المشرق والأندلس**

المدخل: ابن حزم وبوادر الدرس الصوتي عند علماء المشرق والأندلس تمهيد

1- عند علماء المشرق:

أ- جهود الخليل بن أحمد (ت175هـ).

ب- جهود سيبويه (ت180هـ).

ج- جهود ابن جني (ت392هـ).

د- جهود الفلاسفة العرب الصوتية.

2- عند علماء الأندلس:

أ- البوادر اللغوية الأولى في الأندلس.

ب- أثر ابن حزم في توجيه المسار اللغوي.

ج- بواعث الدرس الصوتي في الأندلس.

د- مظاهر الجهود الصوتية عند الأندلسيين.

أ- عند القراء وعلماء التجويد:

1- الظواهر الصوتية التي عالجها علماء التجويد

2- الفرق بين علم التجويد وعلم الأصوات

3- مميزات علم القراءة وعلم التجويد

ب- عند الفلاسفة الأندلسيين:

ب1- ابن طفيل (ت571هـ)

ب2- ابن رشد (ت595هـ)

* مفهوم المقطع الصوتي عند ابن رشد

* أثر النغم في تحديد الفهم عند ابن رشد

* تعريب الألفاظ الأجنبية عند ابن رشد.

ب3- ابن باجة (ت533هـ).

3- الخلاصة.

- تمهيد:

لم يكن العرب الأوائل في مجال التفكير الصوتي فقد سبقهم الهنود الذين اندفعوا في الدرس اللغوي عامة خدمة للنص المقدس والأمر نفسه عند اليونان الذين اهتموا بالنص الفلسفي والأدبي، وكان للعرب الباع الأطول في هذا المضمار نتيجة نزول القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياء فقد كان يتلقاه سماعاً ويقدمه للصحابة مشافهة، وبعد انتشار الإسلام واتساع رقعته مع نهاية القرن الأول الهجري ازدادت عناية العرب بلغتهم وتطور التفكير الصوتي درءاً لانتشار اللحن والخطأ في غيبة الحركات التي تعد معياراً للنطق السليم.

وقد كانت الانطلاقة الأولى على يد أبي الأسود الدؤلي (ت 69هـ) في شكل إعراب المصحف الشريف، فقد ربط بين الحركة وهيئة الشفتين، وميز بين الحركات فقد أمر كاتبه أن « يضع نقطة فوق الحرف حين يراه يفتح شفتيه فتكون هي الفتحة، ويضع نقطة تحت الحرف حين يراه يخفض شفتيه، وهذه هي الكسرة، ويضع نقطة بين يدي الحرف أي أمامه حين يراه يضم شفتيه، وهذه هي الضمة، فإذا أتبع الحرف الأخير غنة فينقط نقطتين فوق بعضهما، وهذا هو التنوين»¹.

وجاءت محاولة أخرى لنصر بن عاصم الليثي (ت 89هـ) وهي إعجام الحروف المتشابهة، وترتيب الحروف في مجموعات متشابهة ترتيباً داخلياً سمي بترتيب الأشباه والنظائر (ب ت ث. ج ح خ. د ذ ر ز س ش...)، وتوالت الجهود عبر القرون الأربعة الأولى فحمل الخليل لواء الدرس الصوتي بما جاء به في معجمه العين واكتشاف العروض في مجال موسيقى الشعر،

¹ د. إبراهيم جمعة، قصة الكتابة العربية، بيروت، 1981، ط3، ص39.

وتبعه سيبويه ثم ابن جني (ت392هـ) وابن سينا (ت428هـ) والفارابي (ت339هـ) وابن رشد (ت595هـ) والقراء و علماء التجويد وغيرهم من العلماء الأفاضل، فنهض هؤلاء بالدرس الصوتي نهوضاً لا نظير له يدفعهم في ذلك الوازع الديني من أجل الحفاظ على سلامة قراءة كتاب الله عز وجل فقد صرح سيبويه أن القراءة سنة متبعة، ودرء اللحن عن العربية، لقد اتسمت هذه الدراسة بالدقة والتميز على الرغم من اعتمادها على الملاحظة الذاتية والتذوق الشخصي، وقد أكد الاجتهاد الحديث الكثير من النتائج التي توصل إليها الأوائل.

1- عند علماء المشرق:

أ- جهود الخليل بن أحمد (ت175هـ):

جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي ليشكل مجهوده نقطة تحول في الدرس الصوتي العربي، فقد تمثل نشاطه في وضع رموز للحركات الإعرابية، «فالفتحة وضع لها رمزا هو ألف صغيرة فوق الحرف، والكسرة وضع لها رمزا هو ياء صغيرة تحت الحرف، والضمة وضع لها رمزا هو واو صغيرة بين يدي الحرف، ثم طوّر هذه العلامات إلى العلامات التي بين أيدينا وهي الفتحة (ـَ) والكسرة (ـِ) والضمة (ـُ)، وذلك للتفريق بينهما وبين نقط الإِعْجَام»¹.

وقد ابتكر الخليل الهمزة ووضع لها شكل رأس عين صغيرة (ء) وميزها عن الألف، ووضع علامة السُّكُون في شكل دائرة صغيرة، وميّز الحرف المضَعَّف (الساكن الذي يصاحبه إدغام) بوضع سين صغيرة (ـِ) فوق المضاعف، مشيراً إلى ثنائية الحرف (ط¹ ط²) أي توالي صامتتين من جنس

¹ د. صلاح الدين محمد قناوي، التفكير الصوتي عند العرب بين الأصالة والتحديث

واحد من غير فاصل وميّز بين همزة الوصل وهمزة القطع، قال السيوطي: «أول من وضع الهمز والتشديد والروم والإشمام الخليل»¹ والروم ظاهرة صوتية تدرك بالسمع والإشمام بالعين.

على أن براعة الخليل تجلت أكثر في ذلك الإبداع العلمي التقدير ممثلاً في الأبجدية الصوتية التي جاء بها وفق ترتيب مخارج الأصوات بدءاً من الأعرق في جهاز التصويت وصولاً إلى مخرج الشفتين.

وقد إصطلح عليها بصفات المخرجية نسبة إلى مواضع إنطلاقها، فقال: «العين والحاء والهاء والحاء والغين حلقيه، نسبة إلى الحلق والقاف والكاف لهويتان نسبة إلى اللهاء، وهكذا يستطرد في تصنيفه للأصوات حسب مخارجها حتى ينهيها بقوله والياء والواو والألف والهمزة هوائية نسبة إلى الهاء في مجراه»²، وقد قسّم الأصوات إلى نوعين حروف وحركات، الحروف الصحاح وحروف العلة باستثناء الهمزة فقال: « في العربية تسعة وعشرون حرفاً صحاحاً لها أحياء ومدارج وأربعة هوائية وهي: الياء والواو والألف اللينة والهمزة، لأنها هاوية في الهواء لا يتعلّق بها شيء»³، وقد حقق الخليل هذه النتائج معتمداً على منهج قائم على الملاحظة والتجريب فاهتدى إلى مخارج الأصوات، قال الليث: « وإنما كان الخليل ذاوقه إياها (يقصد الأصوات) أنه كان يفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف، نحو أب، أت، آخ، أع، أغ فوجد العين أدخل الحروف في الحلق»⁴، وقد سميت هذه الطريقة "نوق الحروف"⁵ ويتفق الدارسون أن هذه الطريقة منفردة في تحديد الأصوات والوقوف على مخارجها، ومن أحسن ما عرض له الخليل في دراسة الأصوات ما نجد من وصف للجهاز

¹ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الحلبي، القاهرة، ط3، ص171.

² الخليل، العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، 1988، ط1، ص58/2.

³ نفسه، ص57/2.

⁴ نفسه، ص47/1.

⁵ صلاح الدين محمد قناوي، التفكير الصوتي عند العرب بين الأصالة والتحديث، ص09.

الصوءى؁ وهو الءلق والفم إلى الشفءءن؁ وءقسىمه إىاه إلى مناءق ومءارء الصوءى ءل منها بصوء أو مءوءعة أصواء؁ وما أشار إىه من ذوق لىبان ءقىقة المءرء؁ وما ذكره ىرءبء أساسا بعملىة إءءاء الأصواء وءء سار فى اسءءبائ مءارء أصواء العربىة سىرا مءبرىا اسءقرائىا ابءءاءً من أءصى الءلق؁ فالءلق مرورا بالفم فالأسنان وانءهاءً بالشفءءن؁ وهذا « ىءل على ذوق ءسى فرىء وصبر وءءرة على الاسءءءاء ءءى ءوصل إلى ما ءوصل إىه إبءاعا وابءكارا؁ ءون الاسءعانة بأى ءهاز علمى؁ إء لا ءهاز أنءاك؁ وهو ما لم ىءبء العلم ءءشرىءى الءءىء بءل أءهزءه الءقىقة ومءءبراءه الضءمة ءلافا له؁ فىما ىبءو ىسىرا»¹.

إن الءلىل فى ذوقه الصوءى ءلب أصواء العربىة فوءعها ضمن مءارء صوءىة مءىنة بءسب مءارء مءءرة من أءصى الءلق ءءى إءباق الشفة فى المىم؁ وءء صنف هءه المءارء فءعلها عشرة وهى كالأءى:

1/ ع - ء - ه - ء - ء - ء.

2/ ء - ء.

3/ ء - ش - ض.

4/ ص - س - ز.

5/ ط - ء - ء.

6/ ظ - ء - ذ.

7/ ز - ل - ن.

8/ ف - ب - م.

9/ و - ا - ى.

¹ ءلىل عطفىة؁ البءء الصوءى عءء العرب؁ ص11.

10 / همزة¹**ب- جهود سيبويه (ت 180هـ):**

حفل كتاب سيبويه بوقفات عديدة تعد أدق تصنيفا وأوفى دراسة لمخارج الأصوات وصفاتها، فقد ذكر ستة عشر مخرجا صوتيا وفصل الحديث فيها، وخالف الخليل في عملية ترتيب الأصوات فغير رتبة اللام والراء والنون، « فرق بين الحروف الأصول والفروع كما فرق بين الفروع من حيث الاستعمال مشيرا بذلك إلى ما يعرف الآن بالفرق بين الوحدة الصوتية الأساسية والصورة الصوتية وهو ما يعبر عنه في علم الأصوات الحديث بالفونيم والألفون على التوالي»²، وتحدث عن كيفية حدوث الأصوات ذكرا صفاتها من مجهور ومهموس وشديد ورخو وما بين الشديد والرخو والمكرر والمنحرف والغنة والمنفتحة والمطبقة... وفي ذلك يقول: « فالمجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت، فهذه حال المجهورة في الحلق والفم... وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه، حتى جرى النفس معه»³، ويقول أيضا: « ومن الحروف الشديد وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه... ومنها الرخوة... أجريت فيها الصوت إن شئت»⁴، وهكذا فإن سيبويه قد سجل حضوره القوي في الدرس الصوتي وإن بقيت اجتهاداته مختلطة بالبحوث اللغوية الأخرى.

ج- جهود ابن جني (ت 392هـ):

لقد تأثر ابن جني كثيرا بأراء سيبويه الصوتية، وجاء كتابه "سر صناعة الإعراب" حافلا بالعديد من القضايا الصوتية التي وضعت الأسس الأولى لمعالم

¹ المهدي بوروية، ظواهر التشكيل الصوتي عند النحاة واللغويين العرب حتى نهاية القرن 03هـ، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان،

2002/2001م، ص

² صلاح الدين محمد قناوي، التفكير الصوتي عند العرب بين الأصالة والتحديث، ص11.

³ الكتاب، 4/434.

⁴ نفسه، 4/435.

علم الأصوات فاعتمد على منهج يقوم على الوصف الدقيق والشرح والتعليل والتوجيه فتعرض إلى وصف مخارج الأصوات بطريقة تشريحية دقيقة ذاكرة صفاتها العامة ومقسما إياها أقساما مختلفة، ثم تطرق إلى التغيرات التي تعترض الصوت في الكلمة وهو ما يسمى بالإعلال، والقلب، والإدغام، والنقل، والحذف، ثم تحدث عن مبدأ المخالفة والمماثلة والتباعد وأثره في فصاحة الكلمة¹، ولابن جني إضافات علمية قيمة في الدرس الصوتي من ذلك أنه شبه جهاز النطق لدى الإنسان بالناي فقال: « وقد شَبَّه بعضهم الحلق والقم بالناي فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصوت في الأنف غفلا بغير صنعة فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذاك إذا قطع الصوت في الحلق والقم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة ونظير ذلك أيضا العود»² فهذه إشارة إلى علاقة الصوت بالموسيقى، وهو شرح اهتدى إليه ابن جني بفعل ذكائه، ومن جهة أخرى يصور ابن جني علاقة الصوت بالدلالة في عدة صور من ذلك قولهم الخضم والقضم، فالخضم لأكل الرطب، والقضم لليابس فيقول: « فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع... وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها ويحتذونها عليها... من ذلك قولهم خَضَمَ وقَضَمَ فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ، والقضم لليابس، نحو قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك... فاختراروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث»³، ويواصل ابن جني تحليل علاقة الأصوات بمسمياتها فأدرك ببصيرته النافذة أن العديد من أسماء الأشياء

¹ ينظر ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ص14، 15، 16.

² سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط1، 1954، 1/ 9 و 10.

³ الخصائص 157/2 - 164.

والءواناء ءرء عى أءواءه؁ من ذلك البء لءوءه؁ والءازيار وءاق الءراب لءوءه¹؁ وءطرق ابن ءنى أىضا للءءيراء الصوءىة الءى ءءء للءءمة مءءاءا عواءل ذلك فعءء بابا لها وعرف الإءءام بأءه ءقريب صوء من صوء وقسمه عى الإءءام الأكبر والإءءام الأصءر؁ وبيء أن الءانى هو ءقريب الءرف من الءرف؁ وأءرء ءءه أنواءا من الءءير كالألب والإءفاء والإبءال مثل اصَّبَر؁ وقَطَّع؁ واطَّرَه²؁ وءنبه ابن ءنى ءبدا للءركاء العربىة فبيء أنواءها وكمىاءها الصوءىة وءطورها فقالب: « اعلم أن الءركاء أبعاض ءروف المء واللىن وهى الألف والياء والواء فكما أن هءه الءروف ءلاءة فكذلك الءركاء ءلاء وهى الفءة والءسرة والءمَّة فالفءة بعض الألف؁ والءسرة بعض الياء والءمة بعض الواء؁ وقد كان مءءءمو النءوىين يسمون الفءة الألف الصءيرة والءسرة الياء الصءيرة والءمة الواء الصءيرة... ألا ءرى أن الألف والياء والواء اللواءى هن ءروف ءوام ءوامل؁ قد ءءءهن فى بعض الأءوال أطول وأءم منهن فى بعض؁ وذلك قوئك يءاف وىسير وىقوم فءءء فىهن امءءاءا واسءءالة ما؁ فإذا أوءءء بعءهن الهمزة أو الءرف المءءم ازءءن طولا وامءءاءا وذلك نءو يشاء... وىسوء... وىءىء؁ وءقول مع الإءءام ءابَّة... وىطىب بءر؁ وءموءء ءوالب... أفلا ءرى عى زىاءة المء فىهن بوقوع الهمزة والمءءم بعءهن؁ وهن فى ءلا الموءءعبن يسمبن ءروفا ءوامل»³؁ واضء من هءا النص أن ابن ءنى أءرك بفءره الءاقب طبىعة الءركاء العربىة فءءء القصيرة فى ءلاء هى الفءة والءمة والءسرة؁ وأشار بأنها ءطورت عى الألف والءمة والياء؁ وأءرك ابن ءنى أن المءرى يءسع أثناء نطق الءركاء اءساعا يسمء بمرور الءواء ءون إعاقءة؁ وقد سبقه

¹ الءصائص 2/ 165.

² نفسه؁ 2/ 1945.

³ ابن ءنى؁ سر صناعءة الإءراب؁ 19/1 و 20.

الخليل في ذلك فأشار بأن من خاصية الحركات حرية مرور الهواء أثناء النطق بها فوصفها بأنها هوائية¹.

د- جهود الفلاسفة الصوتية:

ألف ابن سينا (ت428هـ) كتابا في الأصوات سمّاه رسالة أسباب حدوث الحروف عالج فيه طريقة حدوث الأصوات وانبعائها من جهاز التصويت وخروجها في شكل موجات عبر الأثير إلى الأذن، وتطرق إلى الفروق بين الأصوات معتمدا على الأثر السمعي مقارنة بين أصوات عربية وأصوات غير عربية لها شبه بها، ومما ساعد ابن سينا على هذا الطرح العلمي هو قربيه من علم التشريح وتخصصه العلمي الدقيق.

ولم يكن ابن سينا بدعا في الفلاسفة المسلمين الذين أولوا الصوتيات عناية في بحوثهم واجتهاداتهم وسجلوا جهودا معتبرة، وإنما نجد العديد من أبناء جيله من أسهم إسهاما في تطوير البحث الصوتي الأمر الذي جعل العديد من الباحثين المعاصرين يلتفت إلى هذا التراث، لإمارة اللثام عنه فقد خص الدكتور علاء جبر محمد في بحثه المدارس الصوتية عند العرب² هؤلاء الفلاسفة بفصل كامل بعنوان: "مدرسة الفلاسفة المسلمين الصوتية، تحدث فيه عن جهود كل من الفارابي الفيلسوف (ت339هـ) وإخوان الصفا، وابن رشد (ت595هـ)، بأن دراسة الفارابي شملت الكثير من الظواهر الصوتية ابتداء من علم الأصوات الطبيعي الذي حاول فيه أن يقف على ماهية الصوت ومصدره وكيفية انتقاله وكيفية السمعية وصولا إلى دراسة التّنغيم وأقسامه وخصائصه، ثم انتقل إلى الحديث عن علم الأصوات النطقي ذاكرة أعضاء النطق وتحدث عن طبيعة الحروف وخصائصها فضلا عن حديثه عن المقطع الصوتي والنغم، وقد تمكّن

¹ ابن جني، سر صناعة الإعراب، 64/1.

² رسالة دكتوراه طبعت بدار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة 2006.

من ءءءء سبب ءءو؁ الصوء بقوءه: «هو مماسة الجسم الصلب جسما آءر صلبا مزاحم له عن ءركته»¹، وءءءء عن انءقال الصوء مشورا إلى الطرقة الءى ینءقل بها الهواء بعء ءمله للصوء فقال: «أما كیف یناءى إلى السمع فإن الهواء الءى ینبو من المقروع هو الءى یمل الصوء فیءرك مثل ءركته الجزء الءى یلیه فینقل الصوء الءى كان قبله الأول ویءرك الءانى ءالءا فیقیل ما قبله الءانى، وءالء رابعا یلیه، فلا یزلا هذا ءءاول من واءء إلى واءء ءءى یكون آءر ما یناءى إلیه من أجزاء الهواء هو الهواء الموءوء فى الصماءین، وهواء الصماء ملاق للعضو الءى فیه القوة الءى بها یسمع ویناءى ءلك إلى القوة السامعة فیسمعه الإنسان»²، فءءیء الفارابى هذا هو إءارة إلى الموءة الصوءیة الءى ینءقل بها الصوء وهى أن ءءرك الموءة الصوءیة الأولى الموءة الءانىة الءى ءلامسها.

وإلى ءلك ذهب أیضا إءوان الصفا الءین عءوا قرع الجسم الصلب لجسم صلب آءر مثله سببا فى ءءو؁ الصوء، إذ ءءءوا فى أكثر من موءع عن مصدر الصوء، واصءلءوا على ءسمیته (بالقرع) فقالوا: «ولربما اءءك بعض الأحجار ببعض فیءءء من بینهما قرع فى الهواء، والصوء قرع یءءء من الهواء إذا صءمء الأجسام بعضها بعضا فءءء بین ءینك الجسمین ءركة عرضیة ءسمى صوءا، بأى ءركة ءءركء، ولأى جسم صءمء ومن أى شىء كانت، وهذه الأصواء ءءقسم قسمین ءیوانیة وءیر ءیوانیة... وءمیع هذه طبیعیة وصناعیة لا یءءء فیهما صوء ولا یسمع لها ءركة إلا من ءصاءم بعضها ببعض، وامتزاج بعضها ببعض، فإنه لولا أن الزامر ینفء فى الءاءى والمغنى

¹ الموسیقى الكبیر، ص213.

² نفسه، ص316.

يحرك الوتر، والناقر ينقر الحجر، لم يوجد لذلك صوت ولا يسمع له حس»¹، ومن ذلك قولهم: « وكل هذه الأصوات إنما هو قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجرام، وذلك أن الهواء بشدة لطافته وخفة جوهره وصفاء طبعه وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها، فإذا صدم جسم جسمًا آخر انسلّ ذلك وتدافع إلى جميع الجهات وحدث منه شكل كما ذكرنا أولاً فيصل بمسامع الحيوان»². إن هذه النصوص تكشف مدى الدقة والفهم لنوع الصوت ومصدره عند إخوان الصفا.

وخلاصة البحث الصوتي عند الفلاسفة تمثل في اعتنائهم بالجانب الطبيعي الفيزيائي فتحدثوا عن النبر والتنغيم واعتمدت مصطلحات خاصة بالقرع والقلع والرطوبة واليبوسة.

2- عند علماء الأندلس:

أ- البوادر اللغوية الأولى في الأندلس:

لقد عرف الأندلسيون نحو الكوفة قبل أن يعرفوا نحو البصرة، فقد وصل إليهم كتاب الكسائي قبل أن يصل كتاب سيبويه، ويذكر صاحب البغية: أن جودي بن عثمان الطليطلي إنتقل إلى المشرق فاجتمع بالكسائي والفراء، وكان أول من أدخل كتاب الكسائي إلى الأندلس، وألف كتاباً في النحو، وكان مولى لآل يزيد بن طلحة³، ومما ساعد على إنتشار المذهب الكوفي ميل الأندلسيين لحب آل البيت حيث عدلوا عن مذهب أبي حنيفة نزولاً عند دعوة محمد النفس الزكية حين قام بالدعوة للخلافة العلوية وإنحاز للمذهب المالكي الذي يولي عناية كبيرة للحديث النبوي الشريف، وكون الإمام مالك إمام الحرمين (مكة والمدينة) ثم إن دعوة

¹ رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا (ق4هـ) دار صادر، بيروت، دت، 392/1.

² نفسه 133/3.

³ السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ص21.

النءو الأوءى كان مهءءا الكوءة بإءارة من الإمام على كرم الله وءهه لأبى الأسود الأءلى (ء 69هـ).

وئذكر أن أهل المغرب والأءءلس إءلعوا على مجهوءاء الأءفش والكسائى وءملوا مصءلءاءهما فى الءرس النءوى فكانوا ءسمون الجر بالأءفض جرئاً على المءهء الكوفى؁ كما إءءعملوا الأء الكوفى فى الكءابة؁ وكان لسفر أبى ءىان الأءءلسى للمشرق وءمله لكءاب سببوىه الأءر الكبئر فى نشر هءا الأءئر فى بلاد الأءءلس؁ والإءبال على ءراسءه وءفظه ومناقشة الآراء الءى ءاء بها¹.

وكان ابن آءروم من الءىن ءرسوا هءا الكءاب وهو مع ذلك كوفى مءمسك بمءهبه؁ وهكءا ءمع الأءءلسبىون ببىن النءوبىن الكوفى والبصرى الأمر الءى ءفع الءكءور ءقوى ضبف إلى أن ءءل للأءءلس مءرسة نءوىة على ءرار البصرة والكوءة ممبزا أباها بما أضافه الأءءلسبىون من ءهوء فى مءال الشرح والءوءببىح والنءء والءوسبىع للءءبء من أبواب النءو والصرف والمءال الصوءى؁ ومن الءىن إءءهءوا وأضافوا أءمالا ءلبلة نءكر ابن ءروف (ء 909هـ) وابن عصفور الأشببلى والشلوببىن (ء 645هـ) وابن الصائء (ء 714هـ) وأبا ءىان الءوءببىء البربرى (414هـ) الءى كان من أصدقاء ابن ءبمبىة؁ ثم إءءءلف معه عءءما أطاع من كءاب سببوىه؁ وألف الملاء من شرح سببوىه للصءار؁ وأءمء بن مءمء بن مءمء بن على الأصببى الءى ءاز الفنون الأءبببىة وملاء زمام العربببىة وإنءقل إلى الشام وءفقه للشافعى وشرح كءاب سببوىه؁ وأبوبكر الءءامبى المالبى قرأ النءو على الشلوببىن وصنّف شرح سببوىه كما شرح إبضاح الفارسببى...²

لءء ءءور الءرس اللءوى ببفضل ءهوء علماء الأءءلس اللءوببىن منهم والنءاة والقراء والفلاسفة؁ وظهر النءو الءعلببى المنظوم على أبببى ءماعة من الناظمبىن

¹ ءقوى ضبف؁ المءارس النءوىة؁ ص 213.

² ببظر ءقوى ضبف؁ المءارس النءوىة؁ ص 215.

أبرزهه ابن مالك (ت 672هـ) وابن آجروم محمد بن ءاوء الصنهاجى (ت 745هـ) الءى نظم الآجرومىة فى النحو العربى والءى نالت الإقبال والرواج وءانت ءءرس فى المعاهء المغاربىة والمشاركىة؁ وىظن الكءىر من الباءءىن أن مصءلء Grammaire الأعجمى (جرامىر) أشءق من الآجرومىة للءلالة على النحو؁ وءء كان ابن آجروم كوفىاً فى بءابىة عهءه عبر بالمصءلء الكوفى فءال بالءفض بءل الجر؁ وءال الأمر مجزوم وهو ظاهر فى أنه معرب وءكر كىفما فى الجوازم؁ ومع هءا الإنءماء فءء ءرس كءاب سىبوىه وءأءر به كءىرا فءاء نحوه ءلطا بىن البصرى والكوفى¹.

ب- أءر ابن ءزم فى ءووجه المسار اللغوى:

إن الءىن ءءءءوا عن وءوء مءرسة أنءلسىة إنما رأوا ءلك بعء إنءءار المءهب الظاهرى الءى ءمل لواءه ابن ءزم إذ نفى مباء القىاس فى المسائل الفقهىة؁ وإنءقلت هءه الفكرة إلى الءرس اللغوى.

لءء صاءب ءءورة الظاهرىة على المءهب المالكى زمن ابن ءزم ولاسىما فى عهد الموءءىن² ءورة ظاهرىة على الءرس النءوى وعلى النءوىىن الءىن إسءنبءوا قواعءهم إعءماءا على القىاس والءعلىل؁ وءءل ابن مضاء القرطبى هءا بقوة فءرء فساء العلل النءوىة - ءسب رأىه - وءال إذا فسءء العلل لم بىق مجال للقىاس وهو ما ىرىء ابن ءزم أن ىطبء فىه مءهبه الفقهى بعءم القول بالقىاس على النحو؁ ولم ىسءء سعىء الأفغانى أن ىءصور نحوه لا قىاس فىه كما لم ىسءء الفقهاء أن ىءصوروا فقهاً لا قىاس فىه³.

مع أن وءهة نظر الظاهرىة واضءة لمن أراء؁ لأن عءم القول بالقىاس بىقى ما لم ىجى فىه نص؁ وبءلك فإن المءهب الظاهرى عءءما ىطبء فى اللغة العربىة

¹ أبوءلءون ساطع ءصىرى؁ فى اللغة والأءب؁ مركز ءراساء الوءءة العربىة - بىروء؁ ط2؁ 1985؁ ص 127.

² محمد طه ءاءرى؁ ابن ءزم صورة أنءلسىة؁ ءار النهضة العربىة؁ بىروء؁ 1983؁ ص93

³ سعىء الأفغانى؁ نظراء فى لغة ابن ءزم؁ ص37.

سوف يعءمء على السلىقة قاعءة فى الءعلم وكما ءضايقت الظاهرىة من العلل والقىاس ءضايق الشعراء من علل النوءىبن وقواعءهم وفى ذلك قال الشاعر:

ولسء بئءوى بُلوءك لِسَانَه ولكئى سَلِيقى أَقُولُ فَأُعَرِّبُ.

ويعءرف ابن مضاء لمؤسسى النحو الأولىن أنهم وضعوا صناعءه لءفظ كلام العرب من اللءن وصىانءه من الءغىبر فبلغوا فى ذلك مبلغا كبىرا وءققوا الذى ابءغوه إلا أنهم الءزموا ما لا يلزمهم وءءاوزوا القءر الكافى فىما أراءوه من الصنائة النوءىة لءلك ءوعرت المسالك وانءطء رءبة الصنائة، وقد شهد الخلىل بءلك حسبما نقله الجاءظ فى كءابه الءىوان: «لا يصل أءء من علم النحو إلى ما ىءءا إلىه ءءى ىءعلم ما لا ىءءا إلىه»¹، وقد ءرس ابن مضاء القربى كءاب سىبوىه وءرس شرح السىرافى علىه، ولكن الءكءور شوقى ضىف ىلاءظ بءق أن ابن مضاء لم ىهءم كءىراً بالنحو الكوفى الذى كان ىءءل مساءة واسعة فى الأءءلس، ولم ىءاول ءءوفىق بىن النوءىن (البصرى والكوفى) وإنما إءءه إلى مهاجمة النحو جملة²، وركز على النحو البصرى الذى كان شائعا وما ىزال شائعا فى عصرنا الءاضر، فاءءه مسرءاً لمعارك النءاة، وابن ءزم نفسه يعءرف بأهمىة النحو وىنفى عنه العلل الءى ىراها فاسءة وىءعو إلى الإءءماء على القرآن الكرىم والءءىء النبوى الشرىف فى إسءءباط قواعءه وإبعاء القىاس عنه وفى ذلك ىقول: «العءب ممن وءء لأعربى جلف أو لإمرئ القىس أو الشماخ أو الءسن البصرى لفظاً فى شعره أو نءره جعله فى اللغة وإءءب به وقءع به على ءصمه ولا ىسءشهد بكلام ءالء اللغات ولا بكلام الرسول وهو أفصء العرب وما فى الضلال أبءء من هءا»³، وىعقب الءكءور عبء الرءمن الءاى صالء على هءا الرأى فىقول: «ولا عءب من موقف ابن ءزم هءا وهو ظاهرى كامل الظاهرىة

¹ الجاءظ، الءىوان 3/ 76.

² شوقى ضىف، المءارس النوءىة، ص 201.

³ ابن ءزم، الإءكام فى أصول الإءكام 4/ 36.

أى ممن ىنكرون القىاس (العربى) أشء الإنكار وىنبذونه نبذاً وجزء كبىر من أعمال النءاة قء بنى على هذا القىاس»¹.

لقد ءاول ابن مضاء أن ىقلل من مجهوءاء النءاة الءىن إعءمءوا على القىاس ولا نءرى أكان ىرىء إنشاء نءو ءءىء أم أنه عمء إلى النءء من باب قناعاءه الظاهرىة وكىفما كان الأمر فقد كان إعءءاهه مءسوباً على المءرسة الأءءلسىة الءى ءاول شوقى ضىف وءع معالم لها ءءءلف بها عن البصرة والكوفة²، لءء ءصءى ابن مضاء بقوة إلى قضىة العواءل، وءقءىر الضمائر المءءقرة فى المءشءاء والمءءءرة فى الأفعال وءنازع العواءل والمعمول، كما طالب بإسقاط الإءءلاف وإسقاط ءءشوىاء، وإءءاء القىاس، شأنه فى ذلك شأن فقهاء الظاهرىة الءىن قءصءوا للمذهب المالكى ءصوصاً فى العهد الموءءى.

وبسقوط الءولة الموءءىة وعودة المذهب المالكى ءناقص ءءىء عن ءعاوى ابن مضاء، وءاء ءءىء عن نءو الكوفة ونءو البصرة وءراسة ءءاب سىبوىه وءءىء عن ءهوء الكسائى والأءفش وءىرهم من رءال اللغة والنءو فى المءشرق والمءغرب من أمءال ءزولى وأبى ءىان وابن مالك وابن آءروم وءىرهم من أبناء البربر المءاربة الءىن كانوا أءمة فى العربىة أرسوا مبانىها وأءلءوا أسرارها ومعانىها وبعءوا ءقافة أءءلسىة مءملاء للءقافة المءشرقىة ومءشركة معها فى بعء معالم ءضارة عربىة إسلامىة ءملاء ءراثاً قومىاً لكل المسلمىن الءىن وءء القرآن الكرىم بىنهم وءعل اللسان العربى مظهراً من مظاهر ءوءىء الأمة المءمءىة ءالءة.

¹ عبء الرءمن ءءاء صالء، السماع اللغوى العلمى عءء العرب ومفهوء الفصاءة، موفم للنشر، ءزائر، 2007، ص318 (الهامش).

² ىنظر شوقى ضىف، المءارس النءوىة، (المقءمة)

ج- بواعث الدرس الصوتي في الأندلس:

لا يخفى على أحد أن أهم باعث لنشوء الدرس الصوتي العربي هو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبي الهدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم باللسان العربي المبين سماعاً عن طريق جبريل عليه السلام. ومع بداية الإهتمام بالقراءات التي كانت سائدة بسبب اختلاف لهجات العرب، والتي تناولها العلماء بالدراسة حتى تطورت وغدت علماً قائماً بذاته سمي بعلم القراءات إعتد فيهم العلماء على التقصي وإتباع أصح الطرق في النقل ولم يعتمدوا على السماع فقط بل إعتدوا على العرض والتلقي، «وهذه القراءات لا تخرج عن كونها حوت اللهجات العربية التي كانت شائعة عند العرب وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن باللهجات العرب تيسيراً لهم وتخفيفاً لألسنتهم وتلك إرادة الله تعالى حتى يتحقق الإعجاز ويحصل الفهم والإعتبار»¹.

لقد نالت القراءات عناية الأندلسيين شأنهم شأن المشاركة وإهتموا كثيراً بعلم التجويد الذي يمثل ثمرة من ثمرات القرآن الكريم اليانعة، وإرتبط إرتباطاً وثيقاً بحفظ القرآن الكريم بإعتباره العلم الذي يكفل له جمال أدائه ويضمن حسن تلاوته وجودة ترتيله. لقد إنطلق القراء في تأسيس علم التجويد من قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾² والترتيل معناه كما سئل عنه سيدنا علي ابن أبي طالب فقال: «الترتيل هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف»³ وقد دارت مؤلفات القراء النحاة حول هذين الركنين فكان فيه الحفاظ على لغة القرآن الكريم في مستوياتها الأربعة صوتاً وصرفاً ونحواً ودلالةً، وإن أي إخلال بالركن الأول يغير المعنى «فماذا لو نطقنا بالضاد دالاً، وبالثاء سيناً وبالظاء ذالاً، كما ألفت كتب في الألفات

¹ تواتي بن تواتي، القراءات القرآنية وأثرها في النحو العربي والفقهاء الإسلامي، ص104.

² المزمّل 73.

³ تواتي بن تواتي، القراءات القرآنية وأثرها في النحو العربي والفقهاء الإسلامي، ص105.

والهمزة والفرق بين الضاد والظاء وكلاهما لأبي عمرو الداني (ت444هـ)،
وكتاب في معرفة الضاد والظاء للصقلي (ت510هـ)»

د- المهتمون بالدرس الصوتي في الأندلس:

أ- عند القراء وعلماء التجويد:

من الأئمة الأعلام والقراء الأفاضل الذين وطدوا القراءة وتركوا جهوداً رائدة نذكر:
1- أبا محمد مكي بن أبي طالب حمّوش القيسي المغربي القيرواني ثم
الأندلسي القرطبي (ت437هـ) وهو أستاذ القراء والمجودين صنّف كتاب
"الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها
وصفاتها وألقابها" كما ألف كتاب "التبصرة في القراءات السبع"¹.

لقد بنى مكي كتابه على جملة من الأبواب ابتدأها بمباحث مختصرة في
الترغيب في حفظ القرآن وثوابه، وفضل أهله وما يجب على أهل القرآن من
رعايته والقيام بحقه، وصفة المقرئ والقارئ وآدابهما، وما يليق ذكره مع ذلك،
إيماناً منه بأن تجويد الحروف والألفاظ ما لم يؤسس على سلامة قصد القارئ
ونقاء طويته كان عديم الأثر، ثم ذكر الحروف التي يؤلف منها الكلام، وما
تضمنه تأليف الكلام وعلله، ومعرفة ما السابق من الحروف والحركات وعلل
ذلك، واختلاف النحويين في حروف المدّ واللّين والحركات الثلاث أيهما مأخوذ
من الآخر وعلل ذلك. وبيان ما زادت العرب في كلامها على التسعة والعشرين
الحروف المشهورة وعلل ذلك؛ كالنون الخفيفة والألف الممالة والألف المفخمة
وهمزة بين بين وغيرها، وصولاً إلى باب صفات الأصوات وألقابها حيث
أوصلها إلى أربع وأربعين بين صفة ولقب ثم عرج على مخارج الأصوات حرفاً
بعد حرف، ذاكرةً « مع كل حرف ما يليق به من ألفاظ كتاب الله تعالى مما في

¹ جهود لأمة في تجويد القرآن، مقال لمولاي محمد الإدريسي الطاهري، أكادير (مجلة إلكترونية).

اللفظ به إشكال، أو فيه بعض صعوبة على اللسان فيحتفظ القارئ منه عند قراءته ويأخذ نفسه بالتجويد فيه وإعطائه حقه وإخراجه من مخرجه»¹.

2- عبء الوهاب بن محمد القرطبي (ت 462هـ) الءى ألف كتابا بعنوان "الموضح في التجويد" أشار فيه إلى طبيعة الصوت الإنساني الءى رفع إليه من قيمته بأن جعل له مخرج مختلفة خلافا لأصوات الحيوانات الءى هي من مخرج واحد، وقد ءءء عن طبيعة الحروف فقال: «الألفاظ بأسرها إنما ءتركب من حروف وحركات وسكونٍ وهذه الأشياء الءلاثة لكل منطوق به كالمادة، عنها يأتلف ومنها ينشأ. فالحروف هي مقاطع للصوت الخارج مع النفس ممتداً مستطيلاً فءمنعه عن إءصاله بغايته، فءيء ما عرض ذلك المقطع سمى حرفاً وسمى ما يُسمّءه ويءاذه من الحلق والفم واللسان والشفءين مخرجاً. ولذلك إءءلف الصوت بإءءلاف المخرج وإءءلاف صفاءها أعني به الجهر والهمس والشءة والرخاوة والإنءباق والإنءءاح وغير ذلك، وهذا الإءءلاف هو خاصية حكمة الله ءعالى الموءعة في هذا الشخص، إذ بها يحصل الفاهم، ولولا ذلك لكان الصوت واحداً بمنزلة أصوات البهائم الءى هي من مخرج واحد، وعلى صفة واحدة فلم يءمىز الكلام ولا عُلِمَ المراد، فبالإءءلاف يُعَلَمُ وبالاتفاق يُعَدَم»².

يءضح من هذا القول: «حروف وحركات وسكون» أنه كان يقصد المقطع الءى أشار إليه علماء الأصوات الآءرون خصوصاً ابن جنى في قوله: «اعلم أن الصوت عَرَضٌ يءرج مع النفس مستطيلاً مءصلاً، ءءى يعرض له في الحلق والفم والشفءين مقاطع ءءنيه عن إءءاده وإسءءالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرف»³.

¹ مكى بن أبى طالب، الرعابة، ص144.

² ءانم ءءور الءمء، الءراساء الصوءية عءء علماء الءجويد، ص103.

³ ابن جنى، سر صناعة الإعراب 1/8.

- 3- أبا عمر عثمان بن سعيد الداني (ت 444هـ).
- 4- أبا الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي (ت 539هـ) في مؤلفه نهاية الإتقان في تجويد القرآن الذي ما زال محظوظا.
- 5- أبا عبد الله محمد بن عتيق بن علي التجيبي الغرناطي (ت 646هـ) في كتابه الدرر المكلفة في الفرق بين الحروف المشكلة.
- 6- أبا علي الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص الأندلسي المعروف بابن الناظر (ت 679هـ) في كتابه الترشيح في علم التجويد.
- 7- أبا الحسن علي بن محمد بن سليم النوري الصفاقسي في كتابه: "تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين"، طبع الكتاب في المطبعة الرسمية بتونس سنة 1974 تحقيق وتصحيح محمد الشاذلي النيفر.
- 8- عبد الواحد أبي السداد المالقي (ت 705هـ) برع في العديد من العلوم على رأسها علم التجويد والقراءات، ألف كتابه الشهير: "الدر النثير" ضمّنه مباحث صوتية، فتحدث عن كيفية أداء كلمات القرآن الكريم وفق وجوها المختلفة، كما تحدث عن الإدغام والمد والقصر وذكر بابا الهمزتين والفتح والإمالة بين اللفظين.
- 9- أبا حيان الأندلسي (ت 745هـ) أول من ذهب إلى تحديد غاية الدراسة الصوتية عند النحاة فقال: «إنما ذكر النحويون صفات الحروف لفائدتين: احدهما لأجل الإدغام، والفائدة الثانية وهي الأولى في الحقيقة بيان حروف العربية حتى ينطق من ليس بعربي بمثل ما ينطق به العربي فهو كبيان نصب الفاعل ورفع المفعول لحن، كذلك النطق بحروف مخالفة مخارجها لما

روي عن العرب في النطق بها لحن»¹، وهو رأي متقدم في تحديد وظيفة الدرس الصوتي الذي حدد فيما بعد.

10- ابن الجزري (ت 852هـ) عالم نحو ولغة وقراءة وتجويد ذاع صيته من خلال مؤلفاته خصوصاً كتابه المشهور: "النشر في القراءات العشر" الذي عالج فيه مجموعة من القضايا الصوتية.

11- إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت 790هـ) كان عالماً متضللاً في علوم الدين واللغة وصاحب منهج علمي متزن من مؤلفاته "الموافقات في أصول الأحكام"، وكتاب "الاعتصام"، نظم قصيدة حرز الأمان المعروفة بالشاطبية التي غدت طريقاً للقراءات².

أ1- الظواهر الصوتية التي عالجها علماء التجويد:

ظهر علم التجويد مستقلاً بذاته عن علم القراءات خلال القرن الخامس الهجري على أيدي علماء الأندلس الذين أبلوا فيه بلاءً كبيراً ويرجع الفضل في ذلك إلى العلماء الثلاثة المشهورين وهم:

- 1- أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت 444هـ) صاحب كتاب "التحديد
 - 2- مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437هـ) صاحب كتاب "الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها".
 - 3- عبد الوهاب القرطبي (ت 461هـ) صاحب كتاب "الموضح في التجويد".
- بالإضافة إلى نفر آخر من العلماء والقراء. وقد عالج هذا العلم العديد من القضايا الصوتية المتعلقة بتجويد القراءة أهمها:
- الإدغام بجميع حالاته وأوجهه وحددوا مواطنه في القراءات.

¹ غانم قدور الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص 98.

² نفسه، ص 108.

- الءنغم وهو إرءفاع الصوت وإنخفاضه أثناء القراءة وءءءوا طرائقه ومواظنه وقء سموا الخطأ فله باللحن الخفى؁ وىظهر الءنغم أكثر فى الأسالىب والءمل الخبرىة والإنشائىة.
- الإمالة والوقف والإشمام والمء والإشباع والءهر والهمس والءرقىق والءفخم وءىرها من الصفاء الصوءىة الءى ءءخل فى مءال الءءوىء؁ وقء قءنوا كل ءلك فى قواعء ىءرسها طلاب هءا العلم ومرىءوه.

أ2- الفرق بىن علم الءءوىء وعلم الأصواء:

- ىءرج علم الءءوىء ضمن علوم القرآن؁ بىنما ىءرج علم الأصواء ضمن علوم اللغة واللسانىاء.
- ءطور علم الأصواء على أىءى المءشءرقىن؁ وءاء أول كءاب ءى بال لإبراهىم أنىس بعءوان "علم الأصواء" سنة 1947م؁ ءم ءوالء الموءلفاء وءءءء ءءى إسءوى هءا العلم على سوقه وإسءفاء من علم الءشرىح والأعمال المءبرىة المعءمءة على الآلة.
- ءفرع علم الأصواء إلى فروع وهى:
 - 1- علم الأصواء النطقى الءى ءعنى بطبىعة الصوت الإنسانى.
 - 2- علم الأصواء الفىزىائى ءعنى بطبىعة الصوت الإنسانى.
 - 3- علم الأصواء السمعى ءعنى بكىفىة إءراك الإنسان للصوء اللءوى.
- ىلاحظ ءءاىل المصءلءاء بىن علم الأصواء وعلم الءءوىء لأن أصل العلمىن واءء؁ والموضوعاء الءى ىءرسها مءشركة.

أ3- ممىزاء علم القراءة وعلم الءءوىء:

- ىرءبء كل من علم القراءاء وعلم الءءوىء بألفاظ القرآن الكرىم إلا أنهما ىءءلفان فى الموضوع كما ىءءلفان فى المنهء.

أما الموضوع: فإن علم التجويد لا يعنى بإختلاف الرواة بقدر عنايةه بتحقيق اللفظ وتجويده، مما لا إختلاف فى أكثره بين القراء، أما المنهج فإن كتب القراءات كتب رواية، وكتب التجويد كتب دراية، تعتمد على مقدره العالم فى ملاحظة أصوات اللغة وتحليلها ووصفها¹.

ب- عءء الفلاسفة الأءلسيين:

تشير الدراسات إلى أن الفلاسفة والمناطقه فى مختلف اللغات عالجوا قضية الصوت اللغوي بطرح معمق وعلمي، فقد أسهب الفلاسفة اليونان وساءلوا أنفسهم كثيراً عن طبيعة الصوت اللغوي نشأة ومخرجا وعلاقته بالدلالة واما إذا كانت هذه الطبيعة تدرك بالحواس والعقول أو أن الأمر مجرد سلوك لوحظ بالمصادفة. فمن ناحية ذهب كثير من فلاسفة اليونان إلى أن الصوت عند الإنسان منشؤه المحاكاة لأصوات الطبيعة وذهب آخرون إلى أنه عملية فيزيائية تسهم فيها أجهزة خلقت خصيصا لذلك وفسره آخرون على أنه سلوك غريزي وأى البعض أنه طبيعة بشرية أوقف الإنسان عليها يتحكم العقل فيها؛ كل ذلك جاء فى مؤلفات أفلاطون (347ق م) وأرسطو (322ق م) وسقراط (399ق م) وغيرهم.

أما عند الفلاسفة العرب الأءلسيين فقد حظيت فكرة الصوت بأهمية بالغة فقد بدأ البحث عندهم بمحاولة تفسير حدوث الأصوات وتنوعها ودرجة قوتها وضعفها ومصادرهما ومقارنتهما، ثم الحديث عن الصوت البشري وربطه باللغة وبالتالي بالدلالة وذلك تأسياً بالفلاسفة اليونان، ثم جاءت القراءات القرآنية فءخل الفلاسفة هذا المجال وساروا على خطى اللغويين ولكن بمنهج فلسفي يجنح إلى المنطق والإستدلال ومن هؤلاء الفلاسفة نذكر:

¹ غانم قءور الءمءء، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص21.

ب1- ابن طفيل:

وهو أبوبكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل الأندلسي القيسي ولد حوالي (500هـ) في وادي آشير الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة غرناطة في الأندلس، كانت حياته هادئة مستقرة، إمتهن الطب ثم شغل الوزارة في غرناطة ثم رحل إلى إفريقيا واتصل بالأمير سعيد بن عبد المؤمن حاكم سبتة وطنجة ثم اصبح طبيبا خاصاً لأبي يعقوب يوسف سلطان الموحدين وتوفي سنة (571هـ).

لابن طفيل مؤلفات مختلفة في الفلسفة والطبيعات والشعر واللغة وأشهر إنتاج خلفه يتمثل في قصة "حي بن يقظان" الفلسفية وهو الذي اقترح على تلميذه ابن رشد تلخيص كتاب أرسطو وتبسيطه¹.

تسرد قصة حي بن يقظان رحلة الإنسان إلى عالم المعرفة مستعملاً عقله وقلبه وحواسه، ويتم ذلك على لسان حي، فقد مس ابن طفيل في قصته الفلسفية هاته الفن القصصي والشعر والفلسفة وعلوم الطبيعة، وما وراء الطبيعة، والرياضيات، والطب، والتشريح، واللغة، وصفات الأشياء، وقد تحدث عن الصوت من جانب علمي فيزيائي فعرفه على لسان حي بن يقظان: «بأنه ما يحدث من تموج عند تصادم الأجسام»² وحتى الأصوات اللغوية ما هي إلا إتصال يحدث عبر المخارج الصوتية.

وفي حديثه عن النشوء حين تعرض للنشوء المرتجل لحي بن يقظان أشار إلى نشأة اللغة بفعل التوقيف ثم حدث لها التطور الذي مس جميع الأشياء.

¹ ابن طفيل، حي بن يقظان، تحقيق د. فاروق سعد، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1992، ط3، ص88.

² نفسه، ص73.

ب2- ابن رشد: هو القاضي والفيلسوف والفقير والمفكر اللغوي أبو الوليد محمد ابن أحمد بن محمد القرطبي ولد سنة (520هـ) وتوفي سنة (595هـ) كتب له أن يبعث نهضة فكرية في تاريخ الفكر البشري العام في أواخر الحقبة التي تعرف باسم العصور الوسطى في الغرب فما أن أشاعت شروحه على أرسطو طاليس حتى أقبل عليها كبار الفلاسفة إقبالا منقطع النظير لما آنسوه فيها من دقة وأمانة وتدبر لم يبرزه أحد من قبل¹.

وكان ابن رشد معاصرا لابن مضاء القرطبي منتظما مثله في حاشية دولة الموحدين يقضي وقته بين قرطبة مسقط رأسه ومراكش عاصمة الدولة الموحدية التي قامت كإمتداد للدعوة لمذهب ابن حزم الظاهري الذي نبذ القياس ونادى بالرجوع إلى النص.

ولم تشر الكتب إلى العلاقة التي كانت بين ابن مضاء وابن رشد كما لا نعرف هل تأثر أحدهما بالآخر في مجال التأليف في النحو العربي، كان لابن رشد آراء في النحو العربي ضمنها كتابه المشهور: "الضروري في النحو"، فهو لم يهدف إلى تدارك مسألة من المسائل، فالنحو العربي في نظره قد إستوفيت جميع مسائله تعرض بصورة لا تُرَاعَى فيها الطريقة التي تجعل من المعارف كيفما كان ميدانها علماً يستحق هذا الوصف، ولم يكن يخلط بين النحو والمنطق وإنما كان يريد بناءه وفق "الطريقة المشتركة لجميع الألسنة" كما كان يقول مراراً.

أ- مفهوم المقاطع الصوتية عند ابن رشد:

لابن رشد إجتهدات في مجال الدرس الصوتي وهي جديرة بأن يلتفت إليها كل دارس فهي قريبة جداً من روح الدرس الصوتي الحديث، فهو أول من أشار

¹ ماجد فخري، ابن رشد فيلسوف قرطبة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1960، ص16.

إلى حقيقة التقسيم المقطعي، فالمتكلم لا يستطيع الأداء المستمر لذلك يلجأ إلى التوقف عن هذا الأداء بين برهة وأخرى توقفا لا يكاد يحس به، وأن لتلك الوقفات الزمنية بين أجزاء الكلمة أهمية بالغة في إدراك المعاني لأن هذه الألفاظ إذا وردت مشافهة في الذهن، لم يتمكن الذهن من فهم واحد منها حتى يرد عليه الآخر¹.

وهذا في نظره شبيه بما يعرض لمن يحب أن يتناول شيئا من أشياء سريعة الحركة فإنه لا يتمكن منها.

ويستخدم ابن رشد المقطع بدلالته العلمية الحديثة التي وردت عند علماء الأصوات المحدثين فهو عنده بمثابة إئتلاف يحدث: «بين الحرف المصوت وغير المصوت»² ويقسمه إلى قصير وطويل ويربطه بمواطن النبر في العربية وكيفية حدوثه فيقول: «العرب يستعملون النبرات بالنغم عند المقاطع الممدودة فلا يستعملون فيها النبرات والنغم إذا كانت في أوساط الأقاويل وأما إذا كانت في أواخر الأقاويل فإنهم يجعلون المقطع المقصور ممدودا فإذا كانت فتحة أرفوها بياء... وقد يمدون المقاطع المقصورة في أوساط الأقاويل إذا كان بعض الفصول الكبار ينتهي إلى مقاطع ممدودة مثل قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّنَّ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾³ وبالجملة إنما يمدون المقطع المقصور عند الوقف»⁴. فابن رشد على هذا أدرك المقطع بقسميه إدراكاً علمياً تقره معطيات الدرس الصوتي الحديث.

لم يكتفِ ابن رشد بمصطلح "المقطع" بل جرت ثقافته الفلسفية ومعارفه للغة اليونانية إلى استخدام مصطلح "السلابي" الذي نقله عن اليونانية إلى العربية

¹ ينظر تلخيص الخطابة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت ودار القلم، بيروت - لبنان، ص 284، 285.
² عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، 1981، ص 262، نقلا عن تفسير ما بعد الطبيعة 2/1016.
³ الأحزاب 10.
⁴ تلخيص الخطابة، ص 286 - 287.

منتهجاً سبيل التعريب Syllabe فهو منقول من الأصل اللاتيني Syllaba الذي يعود إلى اللفظ اليوناني Sullaba وهي الصيغة التي قام ابن رشد بتعريبها¹.

«لقد نصَّ ابن رشد على أنَّ المقطع هو كلُّ لا يتجرأ من حيث هو كمية متكاملة تحكمه علاقات مع كل أجزائه، ويستدل على ذلك بالمقابلة بين الشبيه ونظيره فيأخذ من اللحم الذي يتكون من الأرض والماء والنار مثلاً لذلك، فيقارن بينه وبين السِّلابي من حيث أن هذه إذا نحتت وفسدت ليس ينحل المقطع إلى مقاطع واللحم إلى لحوم، كما تنحلّ الأشياء المجموعة إلى تلك التي اجتمعت منها، أعني لا يحدث فيها عن الاجتماع شيء زائد... فالحروف هي التي نسبتها إلى السِّلابي شبه النار والأرض إلى اللحم... فالسِّلابي شيء آخر هو، وليس هو الحروف أي الحرف المصوّت والذي لا صوت له، بل شيء آخر أيضاً»².

لقد أبدى ابن رشد إهتماماً بالغاً بحقيقة المقطع وحدوده، إذ رأى أن هناك أشياء أجزاء حدّها ليست حدوداً لأجزائها، وهناك أشياء بعض حدودها حدود لأجزائها كالدايرة ونصف الدائرة، وهناك أشياء أجزاء حدّها حدود لأجزائها كالمقطع قال ابن رشد: «إنا نجد بعض الأشياء حدّ أجزاءها غير داخل في حدودها مثل حدود أجزاء الدائرة، فإنها ليست منحصرة في حد الدائرة، وذلك أن ثلث الدائرة وربع الدائرة ليس هو داخل في حدّ الدائرة، ولا حدّ الدائرة منحللاً إلى حدودها، بل الدائرة مأخوذة في حد الجزء، وأما حدود المقاطع ففيها كلمة الحروف التي تركّب منها المقاطع، وذلك أن الحروف منها مصوّت وغير مصوّت، والمصوت منه ممدود ومنه مقصور، والمقطع الذي يأتلف من حرفين: مصوّت وغير مصوّت فإن كان المقطع مقصوراً قيل في حدّه إنه الذي يأتلف من حرفين مصوّت وغير مصوّت، فإن كان المقطع مقصوراً قيل في حدّه إنه الذي

¹ ينظر التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص263.

² د. أمينة طيبي، الدراسة فوق التشكيلية عند الفلاسفة المسلمين، مقال في مجلة العربي، العدد 95.

يأءلف من ءرفين مصوءة و غير مصوءة فكان منءصرأ في ءءه ءءء ءءء الءرف المصوءة و غير المصوءة، و كذلك المقءع المءءوء ينءصر في ءءء الءائرة ءء نصفها و لا ءء ربعها و ذلك معروف بنفسه»¹.

ءرء ابن رءء قضيء النغم في المجال الصوءى و اسءقر رأيه على مصءلء النغم و لا يسءعمل ءلءة الءنغم، و ربما كان يقصد الأمرين معأ مع العلم أن الفارابي اسءعمل النغم في المفردة و الءنغم للءلمة، فقال: «إءا أراءنا أن نءرن القول بنغم مؤلفة، فإننا نعمء أوأاً فنءصي عءء نغم اللءن، و نءصي عءء ءروف القول غير المصوءة، و عءءنا ءل مصوء مع غير المصوء المقرون به ءءرف واءء ثم نءايس بين العءءين فبالءرورة ءكون نغم اللءن إما مساوية في عءءها لءروف القول و إما أقل عءءاً منها»²، فالءن عءء الفارابي يقصد به الءنغم، و قد عبر عنه كذلك بمصءلء النغمة و هذا لءربه من الجانب الموسيقي الءي إنءغل به الفارابي.

ب- أءر النغم في ءءءء الفهم عءء ابن رءء:

ءرء ابن رءء وظيفءة النغم في ءءءء الءلالة و مصءلء الءءءء يأتي بعء ءءءل الءلالة و ءءءيقها فقال: «و ذلك أن هذه الأشياء لما كان من شأنها أن ءمىل السامعين إلى الإصغاء و الاسءماع و الاقبال على المءءلم بالوءه، و ءفرىغ النفس لما يورءه، أسءعير لها هذا الاسم و هذه الأشياء صنفان: إما أشكال و إما أصوءات و نغم، و الأشءال بالءلمة يُقصد بها أءء أمرين إما ءفهىم المعنى و ءءيىله الموقع للءصءىق كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال في آءر ءءبة: «بعءء أنا و الساعة ءهائىن» و أشار بأصبعيه يقرنهما»³، و اءء أنه يريد ءرن النغم بالإشارة و الملامء في ءءءء الءلالة لءى المءلءى و هذا ما أشارء إليه الءراساء الءءىءة في

¹ عبء السلام المسءى، الءءءىر اللسانى في الءضارة العربية، ص263.

² ءءاب الموسىقى الءبىر، 1072، 1089.

³ ءلءىص الءءابة، ص250.

المجال السيميائي، ثم أجرى مقارنة بين العربية ولغات أخرى في توظيف النغم لأجل تحديد الفهم فقال: «وفيها أيضاً أنها تستعمل بضرب من الوزن في الكلام الخطبي وهذا الضرب من النغم ضروري في أوزان الشعر من سلف من الأمم ما عدا العرب فإن من سلف من الأمم كانوا يزينون أبياتهم بالنغم والوقفان، والعرب تزنها بالوقفات فقط»¹.

ج- تعريب الألفاظ الأجنبية عند ابن رشد:

عمق ابن رشد نظرتة اللغوية بحديثه عن قضية تعريب الألفاظ الأجنبية وإحاقها بالعربية، شأن اللغات الأخرى التي بدورها اقترضت من العربية، وهو تأثير متبادل اقتضته تشارك الحضارات فيما بينها.

فقال: «وأما اللغات فهي صنفان أحدهما مثل أن يستعمل الحجازي لغة حميرية، والصنف الثاني أن يستعمل في مخاطبة أمة ما لفظاً ليس من ألفاظ أهل لسانهم وإنما هو من لسان أمة أخرى مثل ما يوجد في لسان العرب ألفاظ كثيرة من ألفاظ الفرس والأمم المجاورة لها، وهذا يستعمل على وجهين أحدهما أن يأتي بذلك اللفظ بعينه من غير أن يغير بنيته وتركيبه، والوجه الثاني أن يغيره تغييراً يقرب من الأبنية المستعملة في لسانهم ليسهل بذلك عليهم النطق به مثل: السجيل وغير ذلك مما هو موجود في كتب اللغة»²، فهو إذن يدعو إلى إحياء الألفاظ القديمة وإحداث تعاون لهجي وهو ما أشار إليه ب (الحجازية والحميرية) ثم استعمل الألفاظ الأجنبية بإيرادها كما هي مادام السمع لا ينفر منها ومثل ذلك كثير وهو ما تحدثت عنه كتب الغريب: نحو: السندس والاستبرق والزنجبيل...، أو بإدخال رونق العربية عليها وهو ما أصطلح عليه بتعريب الألفاظ الأجنبية.

¹ تلخيص الخطابة، ص 251.

² نفسه، ص 253.

ب3- ابن باءة:

هو أبوبكر محمد بن يحي بن الصائغ السرقسطي الأءلسي (ت533هـ) فيلسوف وطبيب برع في الرياضيات والفلك واللغة والأءب والموسيقى ءاول فصل الأفكار العرفانية التي إءءلطت ءثيرا بالفكر الإسلامي والءي بدأ بمشروع ابن ءزم الءي عمء إلى تأسيس منهء العوءة إلى الأصول، وإسءبعاء القياس في الفقه، ءعلق ابن باءة بالموسيقى متأثرا بالفارابي، عرف بالءرب باسم Avempace، ءرءمت ءءبه إلى مءءلف اللغات، ومن أشهر مؤلفاءءه: "ءءبير ءوؤء" وءءاب "النفس"، وءءاب "الءون والفساء"، و"رسالة الإءصال"، ماء مسموماً وءفن في مءينة فاس.

أعطى ابن باءة قيمة للعقل، وءنءو فلسفءه إلى أولوية العقل على الوءي، وشدء ءثيراً على أن العقل هو العنصر الءاسم في ءياة الإنسان وبه يءميز عن بقية الءائناء الءية.

كان ابن باءة مءقنا للموسيقى عارفا لألءانها، أنشاء مدرسة لءعليم الموسيقى ومعالجة الأصواء واكتشاف الموءوبين، وإذا كان زرياب يلقب بالإمام المءدم فإن ابن باءة كان يوصف بأنه الإمام الأعظم فقد كان بارعاً في ءءاليف الموسيقى وإسءطاع أن يءءث ثورة بإبءاعه موسيقى ءءناغم مع أنواء الأءلسيين، وقد قام بشرء ءءاب السماع الطبيعي لأرسطو.

ءاء إءءمام ابن باءة بالصوء من باب عنايةءه بالموسيقى لءلك نءه يءءء عن صفاء الأصواء وعن أنغام الموشءاء والأزءال وءءور الشعر العربي وقوافيه، فءعرض إلى ءلءين الأشعار فكان يبعء عن مواطن إراءع الصوء

وإنخفاضه وكيفية التوافق الموسيقي والتناسق التنغمي، وأراءه مبنوثة في رسائله ومؤلفاته¹.

3- الخلاصة:

إنطلاقا مما أقءم يمكن إجمال طبيعة الجهود الصوءية عءء العلماء الأءءلسيين في الخلاصة الآتية:

لم يخرج علماء الأءءلس عى الإطار الءى تمت فيه دراسة الأصوات اللغوية وهو قراءة القرآن الكريم الءى أءى إلى ظهور علم خاص بالقراءات تفرع عىه فيما بعء علم التجويد الءى ضبط أحكام القراءة وقءء لها في الأداء بغية توجيه القراءة نحو الأداء الصحيح، وقد تضمنت كتب علم التجويد أحاءبث مطولة عى صفاء الحروف العربية وعن الحركات كما آءءبث عى الإمالة والإشمام والروم والوقف والإشباع والنبر والتنغم.

ثم تطور المر بأن جعلوا من أسباب البءب في الأصوات أن ينطق غير العربي بالأصوات العربية مثل ما ينطق العربي، وهو إءاء تعليمي آأبب كثيراً بجهود علماء التجويد نظم فيه العءىء من العلماء نظماً تعليمياً يرتب قواعد القراءات ويءءء معالمها.

ولقد قامت الدراسات الصوءية عءء علماء التجويد لغرض إءبئاب اللحن الخفي، وقد كان عىءهم اللحن جلياً وخفياً فالجلي ما يءبب من آغير لحرركات الإعراب والخفي هو عءم إعطاء أصوات الحروف حقا من مآارجها وصفاءها، وبذلك صارت قضايا اللحن الخفي ميدان دراسة علماء التجويد ثم علماء الأصوات بعء ذلك بصفة عامة.

¹ ينظر التآكير الصوءى في الحضارة العربية، ص270.

وبءلك يكون الأءءلسيون قء إءءءوا من القواعء الصوءية للغة العربية وسيلة لءراء اللءن على الألسن؁ وقء ركزوا على ءعلم القرآن الكريم مشافهةً معءمءين على السماع وءءا عنءهم السمع أبا الملكاء.

الفصل الأول:

إبن حزم شخصيته ومكانته العلمية

الفصل الأول: ابن حزم شخصيته ومكانته العلمية

- 1- تمهيد
- 2- مولده ونشأته
- 3- تعلّمه
- 4- وفاته
- 5- آثاره العلمية
- 6- شخصيته العلمية
 - أ- ابن حزم الفقيه
 - ب- ابن حزم اللغوي
 - ج- ابن حزم الشاعر
 - د- ابن حزم المفكر السياسي
 - هـ- ابن حزم الفيلسوف
- 7- رسائل ابن حزم التعريف والمضمون.

1- تمهيد:

لم يتعرض تاريخ ابن حزم للضياع خلافا للعديد من كتبه التي أتلقتها أيادي الجهل و الأحقاد، فقد أرّخ له غير واحد من الدارسين، ونالت حياته قسطا كبيرا من العناية والاهتمام نظرا لقوة شخصيته و غزارة علمه، وأشاد الكثير بمواهبه ومواقفه. فقد كان متعدد المعارف، صاحب موهبة وبصيرة نافذة، تنتقل عبر الزمان والمكان ونال تجربة واسعة في جميع مناحي الحياة، حياة الترف والبذخ والمجد والاقصاء والحرمان والظلم، ومن كل ذلك تكونت شخصيته.

2- مولده ونشأته:

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل¹، فحزم هذا جد أبيه وهو الذي إليه ينتسب وبه يعرف، فهو يبدو رأس هذه الأسرة، ولكن نسبه المدون لا يقف عند هذا الرجل، بل يمضي مطردا حتى ينتهي إلى رجل اسمه يزيد، قالوا: إنه فارسي الجنس، وإنه من موالي يزيد بن أبي سفيان، أحد رجال الفتوح الشامية، والمتوفى سنة 18 هجرية².

وإذن فإن حزم خرج من أسرة من أهل أسبانيا الغربية، كانت تقيم في لبلة، وكانت تدين بالنصرانية، وظلت على نصرانيتها بعد الفتح الإسلامي أمدا غير قصير، حتى اعتنق حزم الذي يحمل اسمه وينتسب إليه صاحبنا الإسلام، في منتصف القرن الثالث الهجري فيما نقدر ومنذ ذلك الوقت جعلت الأقدار تهيء لهذه الأسرة مكانا جديدا في هذه الحياة الجديدة³ وتدنو بها من "لبلة" إلى مركز الدولة في قرطبة، وتتيح لحفيد هذا الرجل "حزم" أن يصير أحد الوزراء النابهين المعروفين

¹ - د. محمد طه الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية: ، دار النهضة العربية، بيروت، ص ب 749، 1982، ص:14.

² - نفسه، ص: 15.

³ - نفسه، ص: 17.

برزانة العقل وحسن التدبير في دولة العامريين، وأن تبرز منها هذه الشخصية الرائعة في تاريخ العقل الإسلامي¹

وقد علا ابن حزم بعلمه، ولم يعل بنسبه، وقد كان من أسرة لها شأن في الوزارة في حكم الأندلس، وكان هو وزيراً لبعض الأمراء، ولكنه رأى الشرف والسلامة والعزة في أن ينصرف إلى العلم، فعلا بالعلم، ودوى في التاريخ اسمه إماماً في الفقه، ومؤرخاً، وكاتباً وشاعراً، ولغويًا ماهراً.

وقد ذكر أنه ينتمي لأسرة فارسية، وذلك أن جده يزيد كان فارسياً وكان مولى ليزيد بن أبي سفيان أخي معاوية الذي ولاه أبو بكر إمارة الجيش الأول الذي ذهب لفتح الشام.

وعلى ذلك فهو قرشي بالولاء، فارسي بالجنس، وإنه لذلك الولاء كان يتعصب لبني أمية، يعادي من عاداهم ويوالي من والاهم، وإن ذلك من الوفاء الذي كان في معدن ابن حزم وكان متغلغلاً في صميم نفسه، حتى إنه أخص سجاياه وأشرف ما عرف به.

وقد رحل جده الأعلى مع البيت الأموي إلى الأندلس، لما رحلوا إليها وأنشأوا ملكهم بها، وقد نزلت أسرته في قرية منت ليشم من إقليم الزاوية من عمل أونبة التي هي من كورة لبلة من غرب الأندلس وأول من وفد إلى الأندلس جده الأعلى خلف²، وقد كان لهم شأن من يوم أن نزلوا، حتى لقد قال الفتح بن خاقان «بنو حزم فتية علم وأدب وثنية مجد وحسب، فلهم رفعة الجاه والمجد»³

¹ - د. محمد طه الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية، ص: 18.

² - الإمام محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1953م، ص22.

³ - نفسه ص23.

اختلف الباحثون المحدثون في نسبه: فذهب دوزي وجولد تسيهر إلى القول بأن جده أو والد جده لم يكن عربيا ولم يولد مسلما، إنما دخل الإسلام الإسلام،¹ ومثل هذا الرأي يعتمد على إشارة لابن حيان قال فيها: « فقد عهدت الناس حامل الأبوة، مولد الأرومة، من عصم لبلبة، جده الأدنى حديث عهد الإسلام»، أما تلميذه الحميدي فيقول إن أصله من الفرس وجده الأقصى في الإسلام اسمه يزيد مولى ليزيد بن أبي سفيان، وقد رددت أكثر المصادر هذا الرأي، وسخر ابن حيان من هذه الدعوى: وذهب إلى أن والده أحمد بن سعيد مؤسس مجد يغنيه عن النسب والسابقة « ولم يكن إلا كلا ولا حتى تخطى عليّ هذا رابية لبلبة، فارتقى قلعة إصطخر من أرض فارس، فأنه أعلم كيف ترقاها، إذ لم يكن يؤتى من خطل ولا جهالة».

وقد ذكر ابن حزم نسبه إلى الفرس، وإفخر بها في إحدى قصائده كما إفخر بولائه لبني أمية، فقال:

سَمَا بِي سَاسَانَ وَدَارًا وَبَعْدَهُمُ قُرَيْشُ الْعُلَى أَعْيَاصُهَا وَالْعَنَابِسُ
فَمَا أَخَّرَتْ حَرْبٌ مَرَاتِبَ سُودَ دِي وَلَا قَعَدَتْ بِي عَن ذُرَى الْمَجْدِ فَارِسُ

كلا النسبين لا يدعيان النسبة إلى العرب، ولكن الفرق بينهما أن الثاني يمنح ابن حزم عددا كثيرا من الآباء المسلمين ويجعل لأسرته جذورا راسخة في الإسلام، أما الأول فيقصر علاقته بالإسلام على جده الأدنى، أما والد جده - على الأكثر - وقد مال لهذا الرأي عدد من الباحثين لأنه يصل ابن حزم بالمسيحية أو بالإسبانية عموما²، رغبة منهم في أن يدرسوه على ضوء الوراثة القريبة، ولكن المؤرخون يميلون إلى ترجيح النسبة الفارسية، لأن اتهام ابن حزم في نسبه الفارسي إنما صدر عن رجل ميال للذم والتلب: هو ابن حيان المؤرخ، ولا يبعد أن يكون انعدام السابقة والأولية قبل صعود نجم أحمد بن سعيد، والد أبي محمد، هو الذي أوحى بهذا

¹ - د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة: دار الثقافة، بيروت لبنان، ط2، ص303.

² - نفسه، ص 304.

الإعتقاد، ثم إن ابن حزم أتقى الله من أن يلفق لنفسه نسبا غير نسبه، وليست وراء هذا التفتيق غاية كبيرة لرجل يرى أن الناس يتفاضلون بأعمالهم لا بأسابهم، وقد نسب نفسه إلى الولاء، وكان هو وأبوه كلاهما ميالا لبني أمية في عهد العامريين، ولا بد أن يكون في صدق الولاء القديم ما يدفعهما إلى مثل ذلك، وقد دهش ابن حيان نفسه من هذه الموالاتة، كما دهش من أن يكون ابن حزم مدعيا في نفسه، إذ لا يعرف عليه خطل أو جهالة¹.

لا يكاد الدارس يجد عالما عظيما قد عرف وقت ميلاده بطرق التعيين، ولكن يعرف وقت وفاته بالتعيين لأنه ولد مغمورا ومات مشهورا، فكان وقت الولادة غير معلوم على وجه التحقيق، ووقت الوفاة كان معلوما، وإن ابن حزم على غير ذلك فقد عرف وقت ولادته بالسنة والشهر واليوم وجزء اليوم الذي ولد فيه، فقد "ولد ابن حزم الأندلسي في السابع من تشرين الثاني سنة 991م الموافق لآخر رمضان من سنة 384هـ بقرطبة، بالجانب الشرقي من المدينة في ربض منية المغيرة المسماة حاليا "سان لورتن" بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر ليلة الأربعاء"². وقد كتب ابن حزم تاريخ ميلاده لأحد معاصريه في رسالة أرسلها إليه، فقد كتب إلى القاضي صاعد أنه ولد في آخر يوم من أيام رمضان سنة 384هـ، وكانت ولادته في تلك الليلة بعد الفجر وقبل طلوع الشمس³.

نشأ ابن حزم في بيت علم وعز ومال وجاه عريض، وكان يعتز بأنه طلب العلم لا يبغى منه مالا ولا جاها، بل يبتغي به النور، ووصفه الفتح بن خاقان (ت535هـ) "هو سليل فتية علم وأدب وثنية مجد وحسب"⁴.

¹ - د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص305.

² - د. نعمان بوقرة: النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2004، ص13.

³ - الإمام محمد أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره - آراؤه وفقهه، ص21.

⁴ - عن مقدمة سعيد الأفغاني لكتاب المفاضلة بين الصحابة، ص24.

نشأ ابن حزم ربيب النعمة فاستحفظ القرآن الكريم في بيته حفظه إياه النساء من الجوارى والقريبات، وتلقى تربيته الأولى على أيديهن كما روى هو عن نفسه، فقد كان للنسوة أثر في تكوين شخصيته، فقد علم من أسرارهن الكثير مما لم يتح لغيره معرفته، فهو الذي لم يجالس سواهن إلى أن بلغ الرابعة عشر من العمر، وقد ركز أسين بلاثيوس (assin palcios) وغارسيا غومس (gracia gomez) كلاهما على هذه النقطة رابطين سلوكه بطبيعة المصدر، فهو كثير الغضب، شديد الغيرة، يحب الحياة وعطوف مسارع إلى المخاصمة¹، يقول ابن حزم عن نفسه: « لقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأنني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب، وحين تفيل وجهي، وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من الأشعار، ودربنني في الخط، ولم يكن وكدي وإعمال ذهني من أول فهمي، وأنا في سن الطفولة جدا، إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك، وأنا لا أنسى شيئا مما أراه منهن، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها، وسوء ظن في جهتهن فطرت به، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل»².

تعلم ابن حزم تعلمه الأول بين النساء، ولكن أباه الذي كان قائما على تربيته معينا به العناية كلها كان لا ينسى عن مراقبته وملاحظة ميوله وإتجاهاته، ولقد حكى هو تلك المراقبة وأنها كانت سبب عفته مع ملازمته للنساء والعيش الرافخ وحياة النعيم، قال: « كان السبب فيما ذكرته أنني كنت وقت تأجيج نار الصبا وشر الحداثة وتمكن غرارة الفتوة مقصورا محظرا على بين رقباء ورقائب، فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا الحسين بن علي الفارسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن زيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه، وكان أبو الحسين المذكور

¹ - أرندك c. van Arendank، دائرة المعارف الإسلامية، ج1، مادة ابن حزم، ص 136.

² - ابن حزم: طوق الحمامة، القاهرة، 1959، ص 50.

عاقلا عاملا عالما ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا، والاجتهاد في الآخرة، وأحسبه كان حصورا، لأنه لم تكن له امرأة قط، وما رأيت مثله جملة، علما وعملا، ودينا وورعا، فنفعني الله به كثيرا، وعلمت موضع الإساءة وقبح المعاصي، ومات أبو علي رحمه الله في طريق الحج»¹.

3- تعلمه:

درس ابن حزم على يد ابن الجسور علم الحديث، وعلى يد ابن الكتاني علم المنطق، وكان طبيبا من مدرسة مسلمة المجريطي، ودرس الأدب على يد أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد، وفي الفقه كان أستاذه عبد الله بن يحيى بن دحون، الذي عرض عليه موطأ مالك (ض)، كما تتلمذ للشيخ أبي الوليد يونس بن الصفار (ت426هـ) وفي سن الثلاثين، ظهرت إحاطته بضروب العلوم القديمة، من فلسفة ومنطق وأديان وتحققه - بخاصة - كتابات اليهود وروايات التلمود، كما قرأ تاريخ الطبري (ت310هـ)، فأصاب منه إدراكا طيبا لتاريخ البشر وأديانهم.

أما في كتاب طوق الحمامة، فإنه يثبت مشيخة أستاذه الأزدي عبد الرحمن بن أبي يزيد الذي غادر الأندلس إبان حروب الفتنة الطائفية حوالي (400هـ)، والذي تعلم على يده الأدب والنحو والشعر وفقه اللغة².

4- وفاته:

هذه حياة ابن حزم، وذلك عصره، وتلك سجايه ومواهبه، والفرص التي واثته، والمهيبات التي هيأته، نشأ في بيت إعتز به، وسمق في المجد، فكان متجها منذ نشأته إلى معالي الأمور، ووجد أباه مثلا صالحا، ووجه رجل جدّ فاحتذى حذوه، ولم يجد ابن حزم في السياسة التي عاصرها استقرارا، بحيث يسير على منهاج أبيه، بل إن الزعازع السياسية ابتدأت في آخر حياة أبيه، لكن لما وجد طريق المجد

¹ - الإمام محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره، آراؤه وفقهه، ص27.

² - د. نعمان بوقرة: النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي، ص15.

في السياسة مدعثرا مضطربا اتخذ العلا سبيلا، قصده إبتغاء وجه الله، وقد أوتي مدارك عالية، ومواهب سامية، فتفرغ للعلم وانصرف إليه، ولقد حاول أن يخدم دينه في السياسة، وهو في وسط نور العلم، فوجد السياسة متعكرة وأحوالها مضطربة، فعاد إلى نور العلم يستضيء به.

قال صاعد: ونقلت من خط ابنه أبي رافع، أن أباه علي ابن حزم، توفي عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان، سنة ست وخمسين وأربع مائة (456/08/20هـ) فكان عمره إحدى وسبعين سنة وأشهرا رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته، ويوافق التاريخ الميلادي، اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس عام ألف وأربع وستين (1064/08/14م).¹

5- آثاره العلمية:

قال أبو حامد الغزالي: وجدت في أسماء الله تعالى كتابا ألفه محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه.

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار، أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليه أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. ولا بن حزم مصنفات جليلة منها:

1- مؤلفات ابن حزم في فروع الفقه:

- إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل (مطبوع)
- الإحكام لأصول الأحكام (مطبوع)
- الإيصال إلى فهم كتاب الخصال (مطبوع)

¹ - ابن حزم الأندلسي، الأخلاق والسير، تحقيق عادل أبو المعاطي، دار المشرق العربي، القاهرة، ط1، 1408، 1988م، ج1، ص02.

- الإيصال الحافظ لعمل شرائع الإسلام (مطبوع)
- الإظهار لما شنع به على الظاهرية (مطبوع)
- الإجماع ومسائله في أبواب الفقه (مطبوع)
- الإملاء في قواعد الفقه (مفقود)
- اختلاف الفقهاء الخمسة (مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وداوود) (مفقود)
- إظهار تبديل اليهود والنصارى للكتابين التورات والانجيل وبين تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل (مفقود)
- الترشيح في الرد على كتاب الفريد لابن الروندي (مفقود)
- التصفح في الفقه (مفقود)
- التحقيق في نقض كتاب العلم الإلهي لمحمد ابن زكريا الطبيب (مطبوع)
- رسالة البيان عن حقيقة الإيمان (مطبوع)
- رسالة على شارع النجاة باختصار الطريق (مطبوع)¹
- رسالة في الإمامة (مطبوع)
- رسالة في حكم من قال إن أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين (مطبوع)
- رسالة في الرد على ابن النغريرة اليهودي (مطبوع)
- رسالة في مسألة الكلب (مخطوط)
- رسالتان أجاب فيهما على رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف (مطبوع)

¹ - حاجي مباركة، الظاهرة الجمالية بين ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزالي من خلال طوق الحمامة وإحياء علوم الدين، ماجستير فلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2004 / 2005م، ص 73.

- رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محذور؟ (مطبوع)
- رسالة الدرّة في تحقيق الكلام فيما يلزم الإنسان اعتقاده (مخطوط)
- الصادع الوادع ي الرد على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد (مطبوع)
- الفصل في الملل والأهواء والنحل (مطبوع)
- مختصر في علل الحديث (مطبوع)
- المحلى (11 جزء) (مطبوع)

2- مؤلفاته في الحديث:

- أجوبة على صحيح البخاري (مفقود)
- ترتيب مسند بقي من مخذ (مفقود)
- جزء في أوهام الصحيحين (مفقود)
- الجامع في صحيح الأحاديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحها واجتلاب اكمل ألفاظها وأصح معانيها (مفقود)
- شرح أحاديث الموطأ والكلام على مسائله (مفقود)
- مختصر في علل الأحاديث¹

3- مؤلفاته في الأخلاق والتربية:

- رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق (مطبوع)
- رسالة في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها (مطبوع)
- رسالة التلخيص لوجه التلخيص (مطبوع)
- رسالة مراتب العلوم (مطبوع)
- هل للموت ألم أم لا ؟ (مطبوع)

¹ - حاجي مباركة، الظاهرة الجمالية بين ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزالي من خلال طوق الحمامة وإحياء علوم الدين ، ص74.

- الرد على الكندي الفيلسوف (مطبوع)
- مسألة هل السواد لون أم لا ؟ (مطبوع)
- مقالة السعادة (مفقود)
- 4- مؤلفاته في الفلسفة:**

- التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية (مطبوع)¹
- هل للموت ألم أم لا ؟ (مطبوع)
- الرد على الكندي الفيلسوف (مطبوع)
- مسألة هل السواد لون أم لا ؟ (مطبوع)
- مقالة السعادة (مفقود)²

5- مؤلفاته في التراجم والتاريخ:

- تسمية شيوخ مالك (مفقود)
- تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر المنصور (مفقود)
- جزء في فضل العلم وأهله (مفقود)
- جمهرة انساب العرب (مطبوع)
- ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس (مطبوع)
- رسالة في جمل فتوح الاسلام (مطبوع)
- غزوات المنصور ابن أبي عامر (مفقود)
- تواريخ أعمامه وأبيه وأخواته وبنيه وبناته، مواليدهم وتاريخ من مات منهم في حياته (مفقود)
- فهرست شيوخ ابن حزم (مفقود)
- الفضائح (مفقود)

¹- حاجي مباركة، الظاهرة الجمالية بين ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزالي من خلال طوق الحمامة وإحياء علوم الدين ، ص75.

²- نفسه، ص76.

- مراتب العلماء (مفقود)
- رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها (مطبوع)
- نسب البربر (مفقود)
- نقط العروس في تاريخ الخلفاء (مطبوع)¹
- 6- مؤلفاته في اللغة والأدب:**
- أشعار متفرقة في كتبه وقصيدة مطولة في الرد على "نقفور ملك الروم (مطبوع)
- بيان البلاغة والفصاحة، رسالة في ذلك إلى "ابن حفصون" (مفقودة)
- رسالة التأكيد (مفقود)
- رسالة في القرآن ليس في نوع بلاغة الناس (مفقود)
- الرد على ابن الاقليلي في شعر المتنبي (مفقود)
- شيء في العروض (مفقود)
- طوق الحمامة في (الإلف والآلاف) (مطبوع)
- 7- مؤلفات في الطب:**
- اختصار كلام جالينوس في الامراض الحادة (مفقود)
- رسالة في الطب النبوي (مفقود)
- شرح فصول بقراط (مفقود)
- كتاب في الأدوية المفردة (مفقود)
- مقالة في شفاء الضد بال ضد (مفقود)
- مقالة في المحاكمة بين التمر والزبيب (مفقود)²

¹ - حاجي مباركة، الظاهرة الجمالية بين ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزالي من خلال طوق الحمامة وإحياء علوم الدين ، ص77.

² - نفسه، ص78.

6- شخصيته العلمية:

قال أبو حامد الغزالي: وجدت في أسماء الله تعالى كتابا ألفه أبو محمد ابن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه.

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار، أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط يبه أبي محمد من تواليه أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

قال أبو عبد الله الحميدي: كان ابن حزم حافظا للحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننا في علو جمّة، عاملا بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين، وكان له في الأدب والشعر نفسٌ واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديه أسرع منه، وشعره كثير جمعته على حروف المعجم.¹

أ- ابن حزم الفقيه:

كانت الأندلس على أيام ابن حزم مالكية المذهب تحكم بفقهه وتسير بهداه، وكان الجدل قائما في بعض الأوساط حول المذاهب الأخرى أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وقد اتفقت هاته المذاهب على الأخذ بالقياس بل وجعلوه أحد مصادر التشريع الرئيسية إلى جانب القرآن والسنة والإجماع فكثر الأخذ بالرأي في العديد من المسائل الفقهية المطروحة.

وليس من المستبعد أن يكون ابن حزم قد حشر نفسه في هذا الجدل وأطلع على المذاهب الأربعة، ولكن الرجل أراد فيما يبدو أن يجتهد ويمعن النظر، وقد أقبل على الفقه في نهم وتلهف كبيرين، وبذل جهدا هائلا في الإطلاع على مذهب

¹ - ابن حزم، الأخلاق والسير، ص 05.

أبي داود بن علي بن خلف البغدادي (ت270هـ) الذي كان ينكر القياس جملة وتفصيلاً ويتشدد في الأخذ بحرفية النص ويمنع التقليد منعا باتاً ويدعو إلى ظاهر النص¹.

وهكذا حمل ابن حزم على نفسه الدعوة إلى المذهب الظاهري وجادل فيه جدلاً قويا ووضع الكثير من الكتب والرسائل في شرح أسس ومقاصد هذا المذهب، لعل أهمها: "الإحكام في أصول الأحكام" وكتاب "إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل" وكتاب "مسائل أصول الفقه" وكتاب "الإجماع ومسائله على أبواب الفقه"، وكتاب "كشف الالتباس ما بين الظاهرية وأصحاب القياس".

لقد أخذ ابن حزم على نفسه مواصلة الدفاع على المذهب الظاهري في بيئة كانت تتعصب للمذهب المالكي مما جرّ عليه الكثير من الخصومات، « فلما قال بالظاهر ألب عليه الفقهاء والعامة والأمرء، واستأنف بذلك حياة كلها عنت وأذى ومضايقات»²

فقد دعا إلى الاعتماد على الكتاب والسنة والإجماع فقط، وخالف مدرسة الرأي في رفضه للقياس أصلاً، واستنكاره لمبدأ التقليد، حتى ولو كان المقصد صحابياً وحقته في ذلك أنه لا يحل لأحد من غير برهان ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾³، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاؤَنَا﴾⁴، وهو يقرّ أنه لم يكن بين الصحابة والتابعين أحدٌ يقلد آخر في كل ما قال « وقد صح إجماع جميع الصحابة رضي الله عنهم أولهم عن آخرهم، وإجماع جميع التابعين أولهم عن آخرهم على الامتناع والمنع من أن يقصد منهم أحد إلى قول إنسان منهم

¹ - زكرياء إبراهيم، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 2001، ص181.

² - ابن حزم، "ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل"، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة جامعة دمشق، 1379هـ/ 1960م، ص8.

³ - الأعراف/ 3.

⁴ - البقرة/ 170.

أو ممن قبلهم فيأخذه كله»¹، وقال بأن التقليد لم يحدث إلا في القرن الرابع الهجري وأما قبل ذلك فقد «كان أهل هذه القرون الفاضلة المحسودة يطلبون حديث النبي صلى الله عليه وسلم والفقهاء في القرآن... ولا يقلد أحد منهم أحدا البتة فلما جاء العصر الرابع تركوا ذلك وعولوا على التقليد الذي ابتدعه»²

وقد احتج بعضهم بقول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾³ ورد ابن حزم على هذه الحجة أن الذكر هو السنن، بدليل قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾⁴ وإذن فنحن أمرنا بأن نسأل أهل الذكر عن الذكر الذي عندهم لا عن رأيهم⁵، ويذهب ابن حزم أيضا إلى إبطال الرأي عكس ما دعا إليه الإمام أبو حنيفة تماما الذي كان يقول: «إذا لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسوله حكم ظاهر نظرت في أقاويل الصحابة فإذا انتهى الأمر إلى غيرهم فأجتهد كما اجتهدوا»⁶، فابن حزم لا يجنح إلى المبرر العقلي بل يقتصر في استدلاله على النص مستخرجا الفقه من ظاهر نص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فهو يقول: «من أفتى بالرأي فقد أفتى بغير علم ولا علم في الدين إلا القرآن والحديث»⁷، ويستدل على موقفه هذا بالقرآن الكريم والسنة النبوية فمن الآيات التي تؤكد زعمه قوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾⁸، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾⁹، ولا يقتصر ابن حزم على إبطال الرأي بل يذهب أيضا إلى إبطال القياس فالقياس عند أهله هو الحكم فيما لا نص فيه

¹ - ابن حزم، الرسائل 54/4 - 55.

² - ابن حزم، الأحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد شاكر، 1348هـ، 142/2.

³ - النحل/ 43.

⁴ - النحل/ 43.

⁵ - زكرياء إبراهيم، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، ص184.

⁶ - نفسه، ص185.

⁷ - نفسه، ص185.

⁸ - الأنعام/ 38.

⁹ - النساء/ 59.

بمثل الحكم بما فيه نص أو إجماع، وقد اختلف الفقهاء في تعليل القياس فقال قوم منهم: لاتفاقهما في علة الحكم وقال آخرون لا اتفاقهما على وجه من الشبه، والفريقان استندوا في قولهم بالقياس إلى وجوب اشتراك الأصل والفرع في الوصف الذي إعتبر علة للحكم¹، وقد عدّ ابن حزم القياس بدعة حدثت في القرن الثاني الهجري وجاء بأدلة عديدة أفاض في الحديث عنها ضمن كتابه: "الإحكام في أصول الأحكام" وفي غيره من مؤلفاته الفقهية، وملخص رأيه في القياس مفاده « أن ما أمر الله به فهو واجب، وما نهى عنه فهو حرام، وأما كل ما عدا ذلك (أي ما لم يأمر به ولم ينه عنه) فهو مباح مطلق حلال. ولما كانت النصوص قد جاءت بكل ما هو محرم، كما نصت في الوقت نفسه على كل ما هو مأمور به، فمن أوجب بعد ذلك شيئاً بقياس أو بغيره، فقد أتى ما لم يأذن به الله تعالى، ومن حرم من غير النص، فقد نهى عما لم ينه عنه الله تعالى»²، ويرى أيضاً أن القياسيين يزعمون أنهم يحكمون فيما لا نص فيه في حين أن الله تعالى قال في كتابه العزيز ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وهذا دليل كاف على أنّ النصوص قد اشتملت على كل شيء فلا حاجة إلى القياس بعدها.³

فهذه هي إذن المبادئ العامة لفقهِ ابن حزم الأندلسي الظاهري التي قامت على منع التقليد ورفض مبدأ الاجتهاد بالرأي وإبطال القياس، وإن القارئ المهتم بدراسة الفقه الظاهري يستطيع أن يجد في كتب ابن حزم الكثير من الأمثلة التطبيقية في استنباط الأحكام وتفريع الفروع، وحسبنا أننا قدمنا صورة عامة لمنهج ابن حزم الظاهري في الإعتماد على ظاهر الكتاب والسنة دون تأويل أو تعليل.

¹- أبو بكر الجزائري، العلم والعلماء، ص28.

²- ابن حزم، الأحكام في أصول الأحكام، تحقيق الشيخ أحمد شاکر، 1348هـ، 2/2.

³- زكريا إبراهيم، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، ص192.

وتحدثنا كتب التأويل أن ابن حزم تعصّب لهذا المذهب وكان له من يناصره، وكان له من عارضه، ويبدو أنه تعرض للوم والعتاب فرد عليهم قائلاً:

قالوا تحفظ فإنّ الناس قد كثرت
فقلت هل عيبهم غير أني لا
وأني موع بالنعص لسنت إلى
لا أنتني نحو آراء يقال بها
أقولهم، وأقويل العدى محن
أقول بالرأي؟ إذ في رأيهم أفن
سواه أنحو، ولا في نصره أهن
في الدين بل حسبي القرآن والسنة¹

ب- ابن حزم اللغوي:

تحتل اللغة في نظر ابن حزم مكانة مهمة في النشاط العلمي، وهي الأساس في نجاح أي بحث، بل وإن إتقانها فرض على الفقيه والفيلسوف والسياسي.

وجهوده متفرقة تنوعت في العديد من المجالات، ومس جميع المستويات اللغوية من معجم، ونحو، وصوت، وبلاغة، ودلالة، ولم يكن يقصد الوصول إلى التخصص ومنافسة علماء اللغة والبيان وإنما دفعته في ذلك سعة ثقافته، وإيمانه بدور اللغة وأهميتها في أي ممارسة علمية أو فنية، فمن «جهل اللغة وهي الألفاظ الواقعة على المسميات، وجهل النحو الذي هو علم اختلاف الحركات لاختلاف المعاني فلم يعرف اللسان الذي به خاطبنا الله تعالى ونبينا صلى الله عليه وسلم، ومن لم يعرف ذلك اللسان لم تحل الفتيا له، لأنه يفتي بما لا يدري»².

ويبدو أن ابن حزم قد عايش أحداثاً أفتى فيها أصحابها ولم يحالفهم الصواب بسبب ضعف لغتهم وتأخر فهمهم للنص ولذلك نجده يلح على ضرورة تحكم الفقيه

¹ - ابن حزم، الرسائل 86/2.

² - الإحكام في أصول الأحكام 693/5.

للغة فقال: « ولهذا لزم لمن طلب الفقه أن يتعلم النحو واللغة، وإلا فهو ناقص منحط لا تجوز له الفتيا في دين الله عز وجل»¹.

وقد تأثرت قناعاته في الدرس بمذهبه الظاهري فهو يرى أن التعمق في الافتراضات والتقديرات والتأويلات أو «ما يسمّى بالعوامل والعلل فهي كلها فاسدة»²، وهو كذلك يحذر من جعل دراسة النحو غاية في ذاته بل ينبغي الاكتفاء بما يخدم الاستعمال وحصول المنفعة، وإن كل تزييد على المقدار لا طائل منه، اللهم إلا من يريد جعله معاشا فهذا وجه فاضل لأنه باب من العلم على كل حال، وقد نظر إلى النحو على أنه وسيلة لا غاية في ذاته فقال: « فيقضي من علم النحو كل ما يتصرف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة، ويقضى من اللغة المستعمل الكثير التصرف»³.

وطرح ابن حزم بدوره قضية نشأة اللغات⁴، وقد جنح إلى الرأي القائل بالتوقيف معتمدا في ذلك على الآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁵، وزعم أن اللغات كان ذات أصل واحد فقال: « ولعلها كانت حينئذ لغة واحدة مترادفة الأسماء على المسميات، ثم صارت لغات كثيرة إذ توزعها بنوه بعد ذلك وهذا هو الأظهر عندنا والأقرب»⁶.

ومما يحسب لابن حزم من فطنة ونباهة أنه لم يفضل لغة على لغة وإنما الأمر في شيوع اللغة وقيمتها هو في مدى اتساع جغرافيتها وذكاء مستعمليها، وهو يسخر من جالينوس الذي فضل اللغة اليونانية على بقية اللغات، وذهب إلى تشبيهها بنباح الكلاب ونقيق الضفادع، فرد عليه ابن حزم قائلا: «هذا جهل شديد لأن كل سامع

¹ - الإحكام في أصول الأحكام ، 208/2.

² - نفسه، 168/4.

³ - ابن حزم، الرسائل ، مراتب العلوم ص64.

⁴ - شغلت هذه القضية العديد من العلماء عبر العصور وقد تحدث عن ذلك أبو علي الفارسي في كتابه الصاحبى ، وكذلك ابن جنى وعلماء الغرب حتى كل الناس ، فتم إيقاف هذه الجدلية هل اللغة توقيف أم اصطلاح.

⁵ - البقرة/ 31.

⁶ - ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام 31/1.

لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكره جالينوس ولا فرق»¹، وقد أشاد الدارسون بهذه النظرة لابن حزم « فقد كانت نظرة رائدة سبق ابن حزم علماء أوروبا بحوالي قرنين من الزمن»².

ج- ابن حزم الشاعر:

انطلق ابن حزم في فهمه للشعر من مبدأ ديني أخلاقي فنظم في الحكمة والوعظ والرتاء والإعتبار بالدنيا والزهد، ورفض أغراض الخمریات والخلاعة واللهم ولم يذكر الفواحش في غزله، ورفض الهجاء رفضاً قاطعاً لأنه يتنافى مع طباعه العالية لما فيه من تناولٍ لأعراض الناس، كما نجده ينكر المغالاة والمبالغة في اللفظ والبيان؛ فتشبيهه الدموع بالأمطار التي تروى السفار وهجران النوم والانقطاع عن الأكل والشرب وفاء للمحبين، كل ذلك يراه ابن حزم كذباً وخارجاً عن حدود المعقول³، وهو الفقيه العالم ذو النزعة الأخلاقية ونفسه تأبى هذا السلوك، ولا يساير المقولة المشهورة "أعذب الشعر أكذبه".

ونظراً لتجربته الواسعة في الحياة وللأحداث التي عايشها والمحن التي مرت به، فقد جاءت أشعاره متسمة بالصدق خاضعة للواقع وليس للذاكرة ولا للخيال، وتميزت لغته بالحيوية والعفوية قائمة على الاقتصاد في استعمال المجاز والاستعارة والتشابه.

«لقد جاء شعر ابن حزم سجلاً ومرآة لكل مراحل حياته وتعبيراً فنياً وصادقاً عن مشاعره وعواطفه تجاه الطبيعة والمرأة من جهة ومن جهة أخرى تعبيراً عن همومه الفكرية في صراعاته مع الحساد والمنائين من أهل زمانه، ثم وصفاً

¹ - الإحكام في أصول الأحكام ، 12/1.

² عبد الكريم خليفة، ابن حزم حياته وأدبه، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، الأردن - عمان، ص107.

³ طوق الحمامة، ص321.

صادقاً لمعاناته الرحلة والاعتراب والحنين إلى الديار التي أصبحت أطلاً¹، كما نجده يعبر عن تأملاته الفكرية في الحياة والموت واستشراقه للعالم الآخر.

1- الأشعار العاطفية:

جاء ابن حزم بتعبير شعري عاطفي تجاه المرأة لم يعرف عند أمثاله من الفقهاء كما أبدع في ذلك معتبراً العلاقة بين الرجل والمرأة نعمة من الله تعالى الأمر الذي جعل الكثير من الأوربيين المعاصرين يشكون حتى في كتاب طوق الحمامة نظراً للصرحة غير المعهودة عند الشعراء العرب المعاصرين له في التعبير عن عواطفه ومشاعره.

لم يكن ابن حزم جاف العواطف ولا ناكراً لمشاعره ولا متعالياً عن أحاسيسه وإنما كان وفيّاً لما بث الله في قلبه من محبة وعواطف صريحاً في التعبير عنها، يقول معبراً عن عواطفه:

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| كذّب المدعي هوى إثنين حنماً | مثل ما في الأصول أكذب ماني |
| ليس في القلب موضع لحبيب | ي ولا أخذت الأمور بثاني |
| فكما العقل واحد ليس يذري | خالقاً غير واحد رحمان |
| فكذا القلب ليس يهوى | غير فريد مباعد أو مدان |
| هو في شرعه المودة ذو شك | بعيد عن صحة الإيمان |
| وكذا الدين واحد مستقيم | وكنوز من عنده دينان |

فهو يستنكر أن يحب المرء شخصين دفعة واحدة ويرى ذلك من قبيل الشهوات الجسدية لا غير، وهي من صفات الرجل المتلون الذي لا يبقى على حال ولا يستقر على عاطفة، وهكذا يربط ابن حزم علاقة المحبة بين الرجل والمرأة بالأخلاق.

¹ مجلة فكر ونقد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، السنة الأولى، العدد 09، مايو 1998، ص102.

ثم نجده يرد على الذين لا يعرفون سر هذه العواطف ولم يعيشوا هذا الشعور في حياتهم فيقول:

يَلُومُ رِجَالَ فَيْكَ لَمْ يَعْرِفُوا الْهَوَى
سَيَانَ عِنْدِي فَيْكَ لَائِحٌ وَسَاكِت
يَقُولُونَ: جَانِبْتُ التَّصَاوَنَ جُمْلَةً
وَأَنْتَ عَلَيْهِمُ بِالشَّرِيعَةِ قَانِت
فَقُلْتُ لَهُمْ، هَذَا الرِّيَاءُ بَعَيْنِيهِ
صَرَاحًا وَزَيِّ لِلْمَرِيئِينَ مَاقِت
مَتَى جَاءَ تَحْرِيمُ الْهَوَى عَنِ مُحَمَّد
وَهَلْ مَنَعَهُ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ ثَابِت¹

2- وصف الطبيعة:

ومن أجمل شعره في وصف الطبيعة الأندلسية ما نظمه بعد التَّنَزُّه في أحد البساتين الجميلة فقال:

وَلَمَّا تَرَوْجْنَا بِأَكْنَافِ رَوْضَةٍ
مُهَدَّلَةِ الْأَفْنَانِ فِي ثُرْبِهَا النَّدَى
وَقَدْ ضَحَكَتْ أَنْوَارُهَا وَتَضَوَّعَتْ
أَسَاوِرُهَا فِي ظِلِّ فِيءٍ مُمَدَّد
وَأَبَدَتْ لَنَا الْأَطْيَارُ حُسْنَ صَرِيْفِهَا
فَمِنْ بَيْنِ شَاكٍ شَجْرِهِ وَمُعْرَد
وَلِلْمَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَّصِرِفٌ
وَلِلْعَيْنِ مُرْتَادٍ، هُنَاكَ وَلِيَدِ².

3- أشعاره في الحنين:

كان ابن حزم محن إلى ماضيه وإلى الأهل والأحباب الذين فرقهم الأحداث، ويتذكر الألفة والعشرة الطيبة التي إفتقدها داعيًا بالسَّقِي لتلك الأيام الجميلة:

سَقَى اللهُ أَيَّامًا مَضَتْ وَلِيَالِيهَا
تُحَاكِي لَنَا النِّيلُوفِرَ الْعَضِّ فِي النَّشْرِ
فَأُورَاقَهُ الْأَيَّامَ حُسْنًا وَبِهَجَّةً
وَأَوْسَطُهُ اللَّيْلُ الْمُقْصِرُ لِلْعُمُرِ
لَهُونًا بِهَا فِي عَمْرَةٍ وَتَأَلْفٍ
تَمُرُّ فَلَا تَدْرِي وَتَأْتِي فَلَا تَدْرِي³

¹ ابن حزم، طوق الحمامة، ص 95.

² نفسه، ص 232.

³ نفسه، ص 191.

4- موقفه من أهل عصره:

إشكى ابن حزم من تحوّل أخلاق الناس ومن كيد الحساد ومضايقه أهل زمانه
قصد الإيقاع به لدى الحكام فقال:

| | |
|---|----------------------------------|
| وا حسرتا إنني بالناس مُمتَحَن | إنني لأعجبُ من شأني وشأنهم |
| إلا وطّارت به الأظعانُ والسُّفن | ما إن قصدتُ لأمرٍ قطّ أطلبُهُ |
| أوكلهم بي مشغول ومُرتهَن | أما لهم شغل عني فيشغلُهُم |
| يَدري مقيم على الحُسنَى ومُفتَنن | دَعُوا الفضول وهبوا للبيان لَكِي |
| بذِكْرِهِ تَدفعُ العماء والمَحَن ¹ | وحسبي الله في بدءٍ وفي عقب |

5- شعره في التأمل والزهد:

احتك ابن حزم بمختلف الأفكار والاتجاهات وطاف كثيراً في البلدان واكتسب
تجارب واسعة من الحياة وعلمته الأيام ما لم يتعلمه من مشايخه فتأمل الحياة
والموت وتقلبات الدهر فنظم أشعاراً جاءت ترجماناً لهذه فقال:

| | |
|--|--------------------------------|
| فلم ألبس ثيابَ المُستضام | جَعَلتُ اليأسَ لي حصناً ودرعاً |
| يسير صني دُونَ الأنام | وأكثرُ من جميعِ الناسِ عِندي |
| فَلستُ لِمَا تولي ذا اهْتِمَام | إذا مَا صَحَّ لي ديني وعرضي |
| أدرِكُهُ؟ ففيمَا ذا اغْتِمَام ² | تولّى الأمس، والغد لستُ أدري |

ويقول:

| | |
|---|--------------------------------------|
| فَجَائِعُهُ تَبقى ولذاتِهِ تَفنى | هل الدهرُ إلا ما عَرَفْنَا وأدركْنَا |
| تَوَلّت كَمَرِ الطَّرْفِ وإِسْتخَلَفت حُزنا | إذا أمكنتُ منه مَسرَّة سَاعَة |
| نود لَدِيهِ أَننا لم نَكُن كُنّا | إلى تَبَعاتِ في المعادِ وموقِف |

¹ ابن حزم، طوق الحمامة، ص 52.

² نفسه، 324.

حَصَلْنَا عَلَى هَمِّ وَائْتِمٍ وَحَسْرَةٍ وَفَاتِ الَّذِي كُنَّا نَلْذِبُهُ عَنْنَا¹

6- الخصائص الفنية لشعره:

إنطلاقاً من هذا العرض يمكن إجمال الخصائص الفنية لشعر ابن حزم في النقاط الآتية:

1- قال ابن حزم الشعر مصوراً تجاربه الذاتية والاجتماعية، ولم يكن عنده لا صنعة فنية ولا تقليداً للسابقين ولا حملاً لتجارب الآخرين.

2- كان ابن حزم واقعياً في شعره غير مبالغ يحكي أشياء عايشها.

3- جعل ابن حزم الشعر نقلاً للأفكار وتعبيراً عن الحياة.

4- نجد في شعر ابن حزم صورَ المجتمع الأندلسي المتحضر والمنحل خفية حيث يمكن التقاط بعض الجوانب الأخلاقية وسلوكات العديد من الأفراد في المجتمع الأندلسي وطريقة تفكيرهم.

د- ابن حزم المفكر السياسي:

1- تمهيد:

إنشغل ابن حزم كثيراً بالأوضاع السياسية في بيئته الأندلسية التي كانت تعيش أوضاعاً خاصة نتيجة التأثيرات المذهبية والفكرية والعرقية، وقد كان له إسهام كبير فطموحاته في تولي الوزارة وإنشغاله بأمور الخلافة ورده على معارضيه ومحاولة التأثير في خصومه، كل ذلك أسهم في إيجاد فكر سياسي لديه تناوله الدارسون بالتحليل والدراسة.

والدارس لتراث ابن حزم في المجال السياسي يصل إلى نتيجة مفادها أن ابن حزم انطلق في فكره السياسي من كونه فقيهاً مسلماً له منهج في فهم

¹ ابن حزم، طوق الحمامة، ص 328.

النصوص، ومن تجربة رجل مثقف عايش أحداثا لها سلبياتها وإيجابياتها، وخرج في النهاية بأفكار ونظريات نالت حظا وافرا من الدراسة.

2- رأيه في نظام الحكم:

يتحدث ابن حزم عن ضرورة انقياد الأمة للإمام حتى يقيم حدود الله ويسوس الرعيّة وفق الشريعة، ولا يحق للأمة أن تتأخر في اختيار الإمام أكثر من ثلاث ليالي¹، « ويفرق ابن حزم بين الإمامة العامة وهي الخلافة وبين إمامة الصلاة، فهو يرى أن الإمامة العامة (الخلافة) لها شروط تفوق شروط الإمامة في الصلاة، ولهذا فهو يرفض الذين يحتجون لخلافة أبي بكر بالقياس على استخلاف الرسول (ص) في الصلاة إذ إن شروط الإمامة في الصلاة أقل شأنًا من شروط الإمامة العامة فلا يحتج لهذه على تلك»².

ولذلك نجده يتفق مع الكثير من الأئمة في شروط الخلافة وهي:

- 1- الإسلام.
- 2- العقل.
- 3- البلوغ.
- 4- الذكورية.
- 5- العلم وحسن التدبير.
- 6- القوة في الإنفاذ.
- 7- الرفق وحسن الخلق³.

¹ - فاروق النبهان، نظام الحكم في الإسلام، ص143.

² - عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، الزهراء للإعلام العربي، ص263.

³ - عبد اللطيف شرارة، ابن حزم رائد الفكر العلمي، ص96.

ونجد ابن حزم يُؤثرُ التولي بالعهد في ذلك تجنباً للفوضى التي تنتج عن توسيع الشورى مما يطرح الخلاف والمشاحنة، ولعله في ذلك تأثراً بالأوضاع السياسية التي كانت سائدة في أندلس الطوائف والفتنة.

3- مهام الحكم الإسلامي:

يرى ابن حزم أن الخليفة يقع على عاتقه تحقيق غايات الحكم الإسلامي، فهو الذي يسوس الرعية وينظم العلاقات الداخلية والخارجية، ويحدد ما يصلح للأمة في أمور الحياة ومجالات المعاش¹، ويحدد الواجبات مجملة ثم « يورد بعض التفصيلات المكملة لها، فواجبات الإمام على نحو مجمل عنده عشرة أشياء:

- 1- حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة.
- 2- تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين.
- 3- الحماية والذب عن الحريم ليتصرف الناس في المعاش.
- 4- إقامة الحدود لتصان محارم الله.
- 5- تحصين الثغور بالعدة المانعة.
- 6- جهاد من عاند الإسلام - بعد الدعوة.
- 7- جباية الفياء والصدقات على الفقراء والمساكين والمحتاجين.
- 8- تقدير العطاء وما يستحق من بيت المال.
- 9- الاستعانة بالأمناء وتقليد النصحاء في الأعمال.
- 10- أن يباشر بنفسه في مسارفة الأمور، وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة»².

¹ - ابن حزم، رسالة المفاضلة بين الصحابة، ص 267.

² - ابن حزم، شذرات من كتاب السياسة، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، مجلة تطوان، عدد 5، السنة 1960، ص 3 و4.

وبواصل ابن حزم شرح نمط حياة الخليفة مع رعيته وبعياله فيرى أن على الخليفة تخصيص يوم الجمعة لتراه الرعية، وبقية الأيام ينظر في أمور الرعية، ومجالسة أهل العلم والعقل وأهل التدبير والرأي، ويتفرغ ليلة لبعياله وأهله¹

4- رأيه في المذاهب السياسية:

إنطلق ابن حزم في أحكامه على المذاهب من قناعاته بمذهبه الظاهري المنافي للتأويل والقياس والاجتهاد المعزول، وقد اعتبر أن بداية هذه المذاهب والفرق السياسية ترجع إلى حادثة التحكيم بين الإمام علي كرم الله وجهه ومعاوية، ويتحدث عن الخوارج الذين رفعوا شعار "لا حكم إلا لله"² والذي وصفه الإمام علي بأنه حق أريد به باطل، ورأى ابن حزم في مقولة الخوارج بأنها تؤدي إلى الفوضى والتسيب ولذلك اعتبر الخوارج كفرة ويتعرض لآرائهم بالنقد والتهكم خصوصا وأن إحدى فرقهم وهو الأزارقة³ أباحوا دم الأطفال ممن لم يكن في عسكريهم وقتل النساء أيضا، وخالفهم كذلك في مرتكب الكبيرة حيث عدوه كافرا وإعتبره حسن البصري منافقا وقال المعتزلة إنه في منزلة بين المنزلتين (مسلم فاسق) وذهب بعض المرجئة إلى أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة⁴، وعالج ابن حزم هذه الآراء التي شغلت حيزا كبيرا من الفكر السياسي الإسلامي بمنهج ظاهري يعتمد على النصوص فلا يفضل نصوص العفو والمغفرة ولا نصوص الحساب والعقاب، ولذلك يقول: « من لقي الله عز وجل وله كبيرة ولم يتب منها فالحكم في ذلك الموازنة، فمن رجحت حسناته على كبائره فإن كبائره وسيئاته كلها تسقط، وهو من أهل الجنة لا يدخل النار وإن

¹ - ابن حزم، شذرات من كتاب السياسة، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، ص5.

² - د. محمد سليم العوا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2006، ص68.

³ - محمد فؤاد عبد الباقي، مسائل نافع ابن الأزرق لابن عباس، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، 1950م..

⁴ - د. عبد الحلیم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ص259.

استوت حسناته مع كبائره وسيئاته فهو لاء مجازون بقدر ما ربح لهم من الذنوب»¹.

هـ- ابن حزم الفيلسوف:

1- مفهوم المنطق عند ابن حزم:

اطلع ابن حزم على مؤلفات الفلاسفة اليونان اطلاقا واسعا، وتوقف كثيرا على آرائهم في مختلف مناحي العلم والحياة، وقد حفلت رسائله بالعديد من المواقف الهامة التي سجلها متأثرا بظاهريته الفقهية، ألف كتاب التقريب لحد المنطق بغرض شرح ما غمض في ترجمة الأولين لأفكار أرسطو، وهو في ثنايا ذلك يفصح عن نيته في أنه لم يكن متتبعا لفكر أرسطو في نشأته وتطوره كما أنه يصرح أنه لم ينشأ فكريا منطقيا مستقلا، وإنما كان الدافع وراء إعادة قراءة منطق أرسطو ديني أصولي وجدلي تعليمي، « فقد كان يعرض رأيه بحسب إدراكه لمنطق أرسطو في ضوء ما منحه الله - عز وجل - من قوة الفهم والتصرف حسب مقتضيات اللغة التي يفكر بها لغة القرآن الكريم، ومن ثم فقد خالف ابن حزم أرسطو في توظيف بعض المصطلحات المنطقية وتحديد مفهومها مثل الجوهر، فقد إتضح لنا موقف أرسطو المبهم من فكرة الجوهر، بينما حدد ابن حزم في وضوح معنى الجوهر في نسقه الفكري، فالجوهر عنده جسم قائم بنفسه حامل لأعراضه، ومن ثم يرفض أن يطلق لفظ الجوهر على الواحد الأحد»²، إن اهتمام ابن حزم بالمنطق جاء بغرض الفهم والتمييز بين الحق والباطل، فمن عرف حدود المنطق لم يوظفه مثله كمثل من جمع آلة البناء ولم يصرفها في البنين فهي معطلة لديه لا معنى لها، فالمنطق لم يكن

¹ - الفصل 4 / 45 - 46.

² - ابن حزم، التقريب لحد المنطق، ص 56.

مجرد معرفة لقواعد التفكير المنطقي وإمام بمصطلحاته، بل وأيضا الوقوف على صور البرهان اليقينية إضافة إلى تعريف أساليب المغالطات التي تمّوه الحقائق¹.

2- فلسفة الأخلاق والفضيلة في نظر ابن حزم:

لابن حزم أسلوب خاص في دراسته للأخلاق فهو يتناولها وفق منهجه الخاص المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وإنطلاقا من العلوم الفلسفية التي عرفتها الأندلس على عهده، اليونانية منها والهندية والفارسية التي ترجمة إلى اللغة العربية، بالإضافة إلى درايته الواسعة باللغة اللاتينية، والأعجمية، وإمامه بالملل والأهواء والنحل، ومعايشته للتجارب المتمثلة في مشاهداته الحيوية وتجاربه الخاصة التي قامت على الاستقراء والتتبع، يتضح ذلك في قوله: « لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله - عز وجل - وفي دعاء إلى الحق، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوان لم يوجبك عليك خالقك تعالى، وفي نصر مظلوم، وبأذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى»²، ويقول أيضا: « كانت في عيوب فلم أزل بالرياضة، وإطلاعي على ما قالت الأنبياء - صلوات الله عليهم -، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وفي آداب النفس، أعاني مداواتها حتى أعان الله - عز وجل - على أكثر ذلك بتوفيقه ومَنّه وتمام العدل، ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق، وهو الإقرار بها ليتعظ بذلك متعظ يوما إن شاء الله، وإنّي لا أبالي فيما أعتده حقًا مخالفة من خالفه، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض وإنّي لا أبالي موافقة أهل بلادي في كثير من زيهم الذي قد تعودوه لغير معنى، فهذه الخصلة عندي من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها»³.

¹ - ابن حزم، التقريب لحد المنطق، ص 58.

² - ابن حزم، الأخلاق والسير، ص 93.

³ - نفسه، ص 135.

أما بشأن الفضيلة فقد استند ابن حزم في مفهومها إلى مفهوم العدل في الإسلام والمقصود أن ينال كل امرئ ثمار جهده، وإن الفضيلة الإنسانية لديه هي « فضيلة النفس لا فضيلة البدن»¹ وبذلك تصبح السعادة التي هي غاية فعل الخير، هي السعادة النفسية، وتكون الفضائل والقيم الأخلاقية أموراً تتعلّق بنتائج أفعال النفس العاقلة في كل حالاتها ولا يقف الأمر عند حد معرفة الفضيلة، وتعلم الخير بل لا بد من الممارسة والتطبيق، وفي ذلك يقول ابن حزم: « فرض على الناس تعلم الخير، والعمل به فمن جمع الأمرين فقد استوفى الفضيلتين معاً، ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم، وأساء في ترك العمل به، فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهو خير من آخر لم يعلمه، ولم يعمل به، وهذا الذي لا خير فيه أمثل حالاً، وأقل ذماً من آخر ينهي عن تعلم الخير ويصد عنه»²، ومن يحدد ابن حزم أربعة مستويات لتعلم الخير والعمل به على النحو الآتي:

- 1- الذي تعلم الخير ويعمل به، وهو الإنسان الفاضل الذي جمع الفضيلتين فضيلة العلم وفضيلة العمل به.
- 2- "الذي تعلم الخير ولم يعمل به" هو الإنسان الذي عرف معنى الخير ولكنه لا يأتيه في سلوكه.
- 3- "الذي لم يعلم الخير فلم يفعله" وهو الإنسان الذي يجهل معنى الخير من ثم لا يأتيه في سلوكه.
- 4- الذي علم الخير ونهى عنه وهو الإنسان الذي عرف الخير ويصد عنه.³

¹ - ابن حزم، الأخلاق والسير ، ص 220.

² - نفسه، ص 257.

³ - علي عبد الواحد وافي، المدينة الفاضلة للفارابي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

3- الحرية في نظر ابن حزم:

الحرية في معناها الاشتقاقي تعني إنعدام القسر والإلزام، وطبقا لهذا المعنى فإن الإنسان الحر هو من لا تتحكم في حركته أية بواعث داخلية كانت أم خارجية¹، أما الحرية بمفهومها الفلسفي تعني إختيار الفعل عن روية وتدبر مع القدرة والاستطاعة على القيام بالفعل أو عدم القيام به، والحرية بهذا المعنى تتضمن وجهين: "حرية الإختيار" وهي الإختيار الإرادي لدى الإنسان أي تقليب المشكلة على وجوهها المختلفة - وجوه الفعل أو الترك - ثم ينتهي إلى رأي يبرمه وقرار ينفذه، وابن حزم يؤيد القول بالحرية ويقرر مبدأ الإختيار ويبطل بالأدلة قوق من يقول بالجبر، مستندا في ذلك إلى النص القرآني في قوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾²، وقوله: ﴿لَمْ تَقُولُونَ مَا لَأ تَفْعَلُونَ﴾³، كما يعتمد ابن حزم في التدليل على مبدأ الإختيار بشهادة الحس فيقول: « فلقد علمنا علما لا يخالجه الشك أن بين صحيح الجوارح وبين من لا صحة لجوارحه فرقا لائحا لجوارحه، لأن صحيح الجوارح يفعل القيام والقعود وسائر الحركات مختارا لها دون مانع، والذي لا صحة لجوارحه، لو رام ذلك جهده لم يفعله أصلا ولا بيان أبين من هذا الفرق، والمجبر في اللغة هو الذي يقع الفعل منه بخلاف إختياره وقصده فأما من وقع فعله بإختياره وقصده فلا يسمى في اللغة مجبرا»⁴

7- رسائل ابن حزم التعريف والمضمون:

1- تعريف الرسائل:

رسائل ابن حزم الأندلسي هي مؤلفات نفيسة تعد من ذخائر العرب، جمع فيها جملة من الآراء والأفكار والرؤى في أجزاء متتابعة، مراعي فيها التقارب

¹ - عبد الرحمن بدوي، الأخلاق عند كنت، وكالة المطبوعات، ط1، 1979م، ص148.

² - الواقعة/24.

³ - الصف/02.

⁴ - ابن حزم، الفصل، مج3، 23/3.

الموضوعي. وقد وردت هذه الرسائل في النسخة المحفوظة بإسطنبول بمكتبة شهيد علي في مخطوط رقمه 2704، والذي يرجع تاريخ نسخه إلى القرن العاشر الهجري، وهو يحوي 265 ورقة، وكتبت هذه الرسائل بخط نسخي جميل. ومجموع هذه الرسائل خمس وعشرون رسالة تتفاوت في الطول والقصر تبعاً لطبيعة الموضوع الذي تتناوله، وتم نشرها بدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، في أربعة أجزاء متتالية، نشر الجزء الأول منها في طبعته الأولى سنة 1980م، والجزء الثاني والثالث في طبعتهما الأولى سنة 1981م، أما الجزء الرابع فقد نشرت طبعته الأولى سنة 1983م¹.

2- مضمونها:

أما عن محتويات هذه الأجزاء، فيضم الجزء الأول منها أربع رسائل هي: "طوق الحمامة في الألفة والإلاف"، و"رسالة في مداواة النفوس"، و"رسالة في الغناء الملهي أمباح أم هو محذور"، و"رسالة في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها"، وهذه الرسائل جميعاً ترتبط بموقف واحد، وتجمعها فكرة واحدة، فهي ذاتية في طابعها العام، متصلة بشخصية ابن حزم، تلقي الضوء على نفسيته وتأملاته². والجزء الثاني يضم خمس رسائل هي: "نقط العروس في تواريخ الخلفاء"، و"رسالة في أمهات الخلفاء" و"رسالة في جمل فتوح الإسلام"، و"رسالة في أسماء الخلفاء"، و"رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها". وألحقت بها ثلاث رسائل هي: "رسالة في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس"، و"فصل في ذكر أوقات الحكام من بني إسرائيل"، و"شذرات من روايات تاريخية"، وهي في مجموعها رسائل

¹ - ينظر: ابن حزم، الرسائل، 1/ 07.

² - نفسه، 1/ 15.

تاريخية عالج فيها قضايا تاريخية، لكن بصورة موجزة، فهي تمثل ملخصات إحصائية وغرائب طريفة عن تاريخ الأندلس، كما تتخللها مواقف فكرية نيرة¹. أما الجزء الثالث فيضم ثمان رسائل: "رسالة في الرد على ابن النخريلة"، ورسالة سميت "رسالتان أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف"، و"رسالة في الرد على الهاتف من بعيد"، و"رسالة التوقيف على شارع النجاة"، و"رسالة التلخيص لوجه التلخيص"، و"رسالة البيان عن حقيقة الإيمان"، و"رسالة في الإمامة"، وأخيرا "رسالة في حكم من قال أن أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين"، وتمثل هذه الرسائل ردودا في مختلف المستويات، فبعضها ردا على عدو للدين، وبعضها ردا على الخصوم، وبعضها الآخر ردا على الأصحاب والأصدقاء والمشايخين، وبعضها صورة للفتاوى عن المسائل التي يطرحها بعض السائلين. وتتفات هذه الردود في الرسائل بين العنف والهدوء مثلما يتفاوت السائلون في حظوظهم من العلم².

والجزء الرابع والأخير من هذه الرسائل يضم خمساً هي: "رسالة في مراتب العلوم"، و"رسالة التقريب لحد المنطق والمدخل إليه"، و"رسالة هل للموت ألم أم لا"، و"رسالة الرد على الكندي الفيلسوف"، و"رسالة في تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول"، والذي يجمع بين هذه الرسائل أنها توحى إلى الفكر أو المنحى المنطقي الفلسفي الذي أوغل فيه ابن حزم في كتبه³. وقد ضمن هذا الجزء آراءه في مسائل لغوية عديدة في مجال النحو، والبلاغة، والصوت، والدلالة، والمعجم.

¹ - ابن حزم، الرسائل، 2 / 05.

² - نفسه، 3 / 1.

³ - نفسه، 4 / 1.

3- نظرة مختصرة عن كل رسالة

أ- رسالة في مراتب العلوم:

وهي رسالة يحصي فيها العلوم الإنسانية ثم يصنفها حسب منفعتها الدنيوية والأخروية محددا مجال كل علم منها و كيفية تعلق بعضها ببعض، وقد رسم فيها أصول منهج التدريس، وانطلق فيها من الحديث عن العلوم وتصنيفها من موقع نزعة التدين العلمي، أي ما الذي نأخذه من العلوم وما الذي نتركه¹ وجعل الغرض من تعلمها جميعا هو تعلم الشريعة لأنها باب النجاة ومفتاح الوصول إلى الفوز بالدار الآخرة، وعليه تجاوز النظرة النفعية الخاصة للعلوم. فهذه الرسالة تظهر الروح الدينية التي ظلت مسيطرة على فكر ابن حزم، لتمسكه بالشريعة الإسلامية وإجلاله لها، حتى أصبح المعيار الأساسي لقيمة أي علم من العلوم يعود إلى مدى خدمته للشريعة.

ب- رسالة التقريب لحدود المنطق:

حدد ابن حزم أصناف التأليف من ناحية الغرض إلى سبعة وهي: «إما شيء لم يسبق إلى استخراجة فيستخرجه، وإما شيء ناقص فيتممه، وإما شيء خطأ فيصححه، وإما شيء مستغلق فيشرحه، وإما شيء طويل فيختصره، دون أن يحذف منه شيئا يحل حذفه إياه بغرضه، وإما شيء مفترق فيجمعه، وإما شيء منثور فيرتبه»²، ويقع تصنيفه لهذه الرسالة تحت النوع الرابع - شرح مستغلة - وهي الرتبة الرابعة من مراتب الشرف في التواليف، لذلك فهي من أهم رسائله في هذا الجزء وفي غيره. تضم ثمانية كتب، انطلق في الحديث عنها من موقع صلة العلوم

¹ - ينظر: ابن حزم، الرسائل، 4 / 22.

² - نفسه، 4 / 103.

بالمنطق والفلسفة، وقد دعاه إلى التأليف فيه ما سمعه من بعض الناس في حديثهم عن العلوم الفلسفية عامة رغم عدم وعيهم بها¹.

فالمعاداة الأندلسية للفلسفة والمنطق وميله إلى الجدال، والنقاش جعلته يطلب هذا العلم متوصلا بعد حين من طلبه إلى عدم منافاته للشريعة معززا موقفه بالاتجاه العقلي، فقد سلك في بيانه وإزالة سوء الظن عنه وتكذيب الممخرقين به طريقة لم يسلكها أحد قبله². فقد بناه بغرض شرح غامضة، واختصار ما يحتاج إليه طالب العلم من حقائق، وكذا تبسيطه حتى ينفذ به الناس مستعملا ألفاظا عامية وأمثلة فقهية، ولم يكن في عرضه مقلدا لآراء أرسطو، ولا مجددا لغيرها، ولكنه اكتفى بإعادة قراءته، من منطلق دوافعه الدينية والجدلية، ثم التعليمية.

أما عن تاريخ تأليف ابن حزم لهذا الكتاب فلم يعن به أحد من الباحثين أو الدارسين المهتمين بدراسة ابن حزم أن يقدم تحديدا دقيقا عن تاريخ تأليفه، ومع ذلك فقد ذهبت إجتهدات بعضهم إلى تحديد تاريخ تقريبي يقوم على الربط بين الظروف والوقائع المحيطة به أثناء أو بعد تأليفه³.

والظاهر أن ما تلقاه من دراسة وقراءة للمنطق لم يكن مجرد تلق، ولكنه يدل على براعة وريادة، إذ تكشف عن آراء وتمايز بين المفاهيم والمعارف، فأخذ يناقش ويجادل فيما تلقاه من مواضيع، مما يعني أنه لم يكن مقيدا ولا مدعيا للإبداع والتجديد وإنما عرض آراءه بحسب إدراكه لمنطق أرسطو في ضوء ما منح من قوة الفهم وشدة التحليل، متقيدا بمقتضيات اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وما ذلك إلا إحياء على أنه لا مناص من مخالفة منطق أرسطو فيما لا يتفق مع العقيدة الإسلامية.

¹ - ينظر: ابن حزم، الرسائل، 4 / 34.

² - ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، (دط)، (دت)، 3 / 326.

³ - ينظر: ابن حزم، الرسائل، 1 / 39.

ج- رسالة في ألم الموت:

وهي رساله قصيرة عرض فيها نظرتي المتقدمين في الموت، نظرة المنافين لألمه، مبرهنا على قولهم ونظرة الموافقين المثبتين لألمه، من دون أن يعرض لبراهينهم إلا الحديث الشريف «إن للموت سكرات»¹ ويرى ابن حزم أنه لا يوجد للموت ألما إطلاقاً، لأنه إذا وقع الموت انعدم وجود الميت، مما يعني أن حسه زال وانعدمت آلامه، وأما احتجاجهم بالحديث النبوي فهذا في نظره زيف وبطلان، لأن تلك الآلام تكون قبل الموت لا بعدها، أي وقت فراق النفس للجسم، وهو الوقت العصيب الأليم، وقد دلنا على ذلك بدليلين أحدهما حسي والآخر ضروري عقلي يرجع إلى الحس أيضاً.

د- رسالة الرد على الكندي:

ويظهر محتواها من عنوانها إذا اتخذها للرد على الكندي في كتابه الذي وجهه إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى. أي فيما دون الطبيعيات والتوحيد، وقد تلاها بمجموعة من الفصول، وعالج فيها مسألة أسماء الله وكانت هي مدار الرد على الكندي، حين جوّز تسمية المولى عز وجل (علة) وقد رفضها لسببين أحدهما عقلي والآخر نقلي².

هـ- تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول:

وسم هذا الفصل بعنوان "تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول"، ومصدره عن ابن حزم على حد قول إحسان عباس مأخوذ من كتاب "النبذ الكافية في أصول أحكام الدين"، وتعريفات موجودة أيضاً في كتاب الأحكام، وعنوان الفصل فيه: "في الألفاظ الدائرة بين أهل النظر" كما ورد الفصل نفسه لاحقاً لكتاب

¹ - البخاري: صحيح البخاري، دار الشهاب - الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، 7/4/192، (كتاب الرقاق - باب سكرات الموت).

² - ينظر: ابن حزم، الرسائل، 4/ 51.

التقريب في مخطوطة إزمير، ولفائده البالغة رأى أن يلحقه، أي إحسان عباس - بما طبعه من رسائل ابن حزم، وفي الجزء - الرابع - على وجه خاص¹.
فهو لا يمثل رسالة مستقلة بذاتها، ولكنه جزء فريد من نوعه يدل على البداية الموفقة لابن حزم في التأليف المعجمي، حتى وإن لم تكتمل فيه صورة المعجم الحقيقي، لمحدودية مفاهيمه ومصطلحاته.

¹ - ينظر: ابن حزم، الرسائل، 1/ 35 - 51.

الفصل الثاني:

الجهود الصوتية عند ابن حزم

الفصل الثاني: الجهود الصوتية عند ابن حزم

المبحث الأول: الدراسات الأصواتية (الفونيتيكية)

ا. جهاز النطق لدى الإنسان

1- تمهيد

2- جهاز النطق كما وصفه ابن حزم

3- مخارج الأصوات

اا. جهاز السمع

1- تمهيد

2- التواصل من منظور ابن حزم

3- أعضاء جهاز السمع في نظر ابن حزم

4- علاقة الصوت بالسمع

المبحث الثاني: التشكيل الصوتي عند ابن حزم

1- تمهيد

2- أقسام الأصوات

3- أبعاد الصوت اللغوي عند ابن حزم

4- تفاعل الأصوات

5- التعريف بالتغيرات الصوتية

6- العوامل المؤثرة في التغيرات الصوتية

7- مظاهر التغيرات الصوتية عند ابن حزم

● المبحث الأول: الدراسات الأصواتية (الفونيتيكية):

1. جهاز النطق لدى الإنسان:

1. تمهيد:

إنَّ أراء ابن حزم في مجال الدراسات الصوتية مرتبطة بالجانب الوظيفي للغة، وقد كان على وعي تام بطبيعة الأصوات اللغوية ذات الطابع الوظيفي، وقد بذل جهداً في تقسيم الصوت إلى أصوات دالة وأصوات غير دالة، وجرَّه حديث تشكيل الأصوات إلى استعراض للأجهزة المنتجة للأصوات، فتحدث عن مكونات جهاز التصويت وقد أسماها "آلة النطق"، فجاء إجهاده مميّزاً فخص في كتاب "مراتب البيان" حديثاً مطولاً ضمن باب: "التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية"¹، فبعد أن تحدث عن مضمون هذا الباب مبيناً فضل الله تعالى على الإنسان، فأكسبه العقل الذي به يميز طبائع الأشياء وكُنّه الموجودات وأسرار الأشياء، راح يعدّد الآيات الكريّمات التي بينت فضل البيان من مثل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾². ثم أشاد بفضل اللغة والبيان وعدّ ذلك من النعم الكبيرة التي أنعم الله بها على الإنسان وفضّله على بقية المخلوقات، وحث على الاعتراف بهذا الفضل العظيم فقال: «فمن جهل مقدار هذه النعمة عند نفسه، وسائر نوعه ولم يعرف موقعها لديه لم يكد يفضل البهائم إلا بالصورة»³.

بيّن ابن حزم أن مراتب معرفة الأشياء في وجوه البيان أربعة لا خامس لها أصلاً ومتى نقص منها جزء واحد اختل من البيان بمقدار ذلك النقص.

فأولى المراتب: أحقية وجود الأشياء في نفسها.

¹ - الرسائل 4 / 93

² - الرحمن 1 إلى 4.

³ - الرسائل 4 / 94.

وثاني المراتب: بيانها بواسطة العقل.

وثالث المراتب: هو البيان المعتمد على المستوى الصوتي وهو المنطوق الذي يقدم هذه الأشياء.

وإن المرتبة الثالثة هي مدار بحثنا فيما يخص هذا الفصل الذي يتناول مكونات جهاز التصويت عند ابن حزم.

2. جهاز النطق كما وصفه ابن حزم:¹

أدرك ابن حزم أن الكلام المنطوق الشفاهي هو أصل اللغة وما الكتابة إلا اختراع بعد ذلك بأزمان طويلة، ولذلك نراه يهتم بالأصوات كلما همَّ بالحديث عن اللغة، وقد عبر عن ذلك بقوله: « والوجه الثالث: إيقاع كلمات مؤلفات من حروف مقطعات، مكن الحكيم القادر لها المخارج من الصدر، والحلق، وأنابيب الرئة، والحنك، واللسان، والشفنتين، والأسنان، وهياً لها الهواء المندفع بقرع اللسان إلى صمغ الأذن، فتوصل بذلك نفس المتكلم مثل ما قد استبانته واستقر فيها إلى نفس المخاطب، وتنقله إليها بصوت مفهوم بقبول الطبع منها للغة إتقفا عليها، فتستبين من ذلك ما قد استبانته نفس المتكلم، ويخرج إليها بذلك مثل ما عندها لطفاً من اللطيف الخبير، لينتج لها ما وهبنا من هذه الخاصة الشريفة والقوة الرفيعة، والطبيعة الفاضلة، المقربة لمن استعملها في طاعته، إلى فوز الأبد برضاه والخلود في جنته نتيجة يبين بها من البهائم التي لا ثواب ولا عقاب عليها والتي سخرها لنا في جملة ما سخر، ودلّلها لحكمنا مع ما دلّل إذ خلق لنا ما في السماوات والأرض إلا ما حمى عنّا، واستثنى بالتحريم علينا فله الحمد والشكر منا، والسمع والطاعة

¹ - هناك فرق بين الجهاز النطقي والجهاز الصوتي، فالجهاز الصوتي عام مشترك بين كل جهاز يحدث صوتاً سواء كان الجهاز آلة كالمنبهات والمحركات والأدوات الموسيقية، أم كان فيزيولوجياً عضوياً على ما هو عليه جميع المخلوقات، أما الجهاز النطقي فيحدث بالأعضاء التي تحدث نطق الأصوات وبين الصوت والنطق فروق فليس كل صوت نطقاً فالنطق مميز يعمل الفكر فيه أما الصوت فلا (ينظر مكي درار، المجمل في المباحث الصوتية ص 34)

علينا ومن فضله تتميم ذلك لنا بمنه وطوله قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا
بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾¹ فهذه المرتبة الثالثة من مراتب البيان»².

إن المتمعن في هذا النص يصل إلى حكم مفاده أن ابن حزم كان على دراية
كبيرة بطبيعة اللغة الوظيفية التي حققت إيصال المعارف بين الأمم والأجيال،
وحملت الأفكار وحققت أفضلية الإنسان على بقية المخلوقات ومكنته من الاستبانة
عن العواطف والوجدان وعبرت عن الأشياء المحيطة به.

لقد عدَّ ابن حزم اللغة إيقاعاً وفي ذلك إشارة إلى النطق فاللغة في حقيقة أمرها
« أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »³، وفي مصطلح الإيقاع إشارة إلى
النغم الموسيقي وإلى الحسن والطرب والتأثر بالصوت، واللغة على زنة فُعلة من
لَعَوْتُ إذا تكلمت ونطقت وأصلها لُغَوَةٌ، وفي الأصوات اللغوية جمال وكثيراً ما يتم
الإعجاب بالإنسان حين ينطق فتحدث المتعة الفنية لدى السامع، فالإيقاع من اللحن
ومن الغناء وهو « أن يوقع الألحان ويبينها وسمَّى الخليل رحمه الله كتاباً من كتبه
في ذلك المعنى كتاب الإيقاع »⁴.

وينتج الإيقاع اللغوي بفضل تآلف الكلمات من حروف مقطعات بتعبير
ابن حزم وفي ذلك إشارة إلى "الكلمة" وهي مدار البحث في علوم اللسان أو كما
أصبحت تسمى الدليل اللساني المتكون من الدال والمدلول، فالكلمة إنْ هي لفظة
دالة على معنى مفرد بالوضع وهي جنس تحته ثلاثة أنواع: الإسم والفعل
والحرف⁵، وتتألف الكلمة من حروف وصفها ابن حزم بأنها مقطعات إشارة إلى
الحروف الهجائية حين تتألف مع بعضها البعض وفق الأنساق العربية، فإذا
تفحصنا الكلمة فسنجد أنها تتألف من الحروف الهجائية التي يتفاوت عددها بحسب

¹ - إبراهيم / 4.

² - ابن حزم، الرسائل، 4 / 96.

³ - ابن جني، الخصائص، 4 / 138.

⁴ - ابن منظور، اللسان، (وقع).

⁵ - الرسائل، 4 / 96.

اللُّغات والألسن» فالحروف إذن هي أصغر الوحدات في الكلمة ولا شك أن اللُّغة التي ليس لها إلا عدد محدود من الحروف الهجائية سيكون رصيدها من المفردات ضئيلاً جداً¹. ثم قال بأن هذه الحروف مكن الحكيم القادر لها المخارج²، ثم راح يعدد كل مخرج على حدة اعتماداً على ملاحظاته الذاتية ومعارفه التي يكون قد أخذها عن سابقه من العرب وغيرهم.

3. مخارج الأصوات:

المخارج جمع مخرج وهو مصطلح صوتي إشتراك فيه العلماء قديماً وحديثاً سمي بذلك لأنه موضع الخروج ومكانه، تحدث عنه سيبويه وعدّد مخارج الأصوات ستة عشر مخرجا فقال: « ولحروف العربية ستة عشر مخرجا فللحلق منها ثلاثة فأقصاها مخرجا الهمزة والألف والهاء، ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء... »³، وسار على هذا الطرح ابن جنّي فقال: « أعلم أن مخارج هذه الحروف ستة عشر »⁴، وقد سماه ابن دريد (المجرى)⁵ وأطلق عليه ابن سينا (المحبس)⁶، وعرفه الأستاذ محمد المبارك: « هو الموضع الذي يكون فيه انحباس الهواء وحجزه من المرور كلياً أو جزئياً بأحد الحواجز الموجودة في الحلق أو الفم كاللهاة أو اللسان أو الشفتين »⁷.

3 - 1 - عدد مخارج الأصوات:

قال العلماء على أنها سبعة عشر وبذلك قال الخليل وأسقط سيبويه وابن جنّي مخرجا هو مخرج أصوات الجوف فعدت ستة عشر، في حين جعلها قطرب

¹ - د. حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، السنة 1981، ص58.

² - ينظر: الرسائل، 96/4.

³ - سيبويه، الكتاب 405/2.

⁴ - ابن جنّي، سر صناعة الإعراب، 52/1.

⁵ - ينظر: ابن دريد، جمهرة اللغة، 45/1.

⁶ - ينظر: ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، ص01.

⁷ - فقه اللغة وخصائص العربية، ص46.

(ت 206هـ) والفراء (ت 207هـ) أربعة عشر مخرجا¹، وقد اشتق القدماء ألقاب الحروف من مخرجها فكل مجموعة من الحروف تشترك في لقب لتقاربها في المخرج: الأصوات الحلقية - الأصوات الشفهية - الأصوات الأسنانية - الأصوات اللثوية...

أ- الصدر: وهو في اللغة « أعلى مقدمة كل شيء وأوله، حتى إنهم ليقولون صدر النهار وصدر الليل، وصدر الأمر أوله، وكل ما واجهك صدر، ومنه صدر الإنسان»² وهو الذي يخفي جهاز التصويت ومن ورائه الرئتان والقصبه الهوائية وحتى القلب، قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾³، ويقصد ابن حزم بالصدر التنفس لأن الصدر مقدمة وواجهة جهاز التنفس، فالتنفس عملية توفر للبدن ما يحتاج إليه من الأوكسجين فيمكن أن نعتبر الكلام عملا ثانيا يقوم به هذا الجهاز، وتشتمل عملية التنفس على مرحلتين هما الشهيق الذي يستدعي الهواء إلى الرئتين باتساع جوف الصدر، والزفير الذي يطرد الهواء منه فيعود جوف الصدر إلى حجمه الأصلي ولذلك عبر ابن حزم بكل هذا بمصطلح الصدر، يقول العلماء: « إن الإنسان عندما يستعد للكلام يستنشق الهواء، فيمتلئ صدره به قليلا، وإذا أخذ في التكلم فإن عضلات البطن تتقلص قبل النطق بأول مقطع صوتي، وهذا التقلص يدفع بالأمعاء إلى الجزء الأسفل من القفص الصدري لتكون سندا قويا لعضلات الصدر، وعندئذ تتقلص العضلات الواقعة بين الأضلاع، بحركات سريعة تدفع الهواء إلى الأعلى عبر الأعضاء المحدثه للأصوات وتواصل عضلات البطن تقلصها في حركة بطيئة مضبوطة إلى أن ينتهي الإنسان من الجملة الأولى، فإذا فرغ منها فإن عضلات الشهيق تملأ الصدر بسرعة استعداداً

¹ - ينظر: د. علي حسن مزبان، علم الأصوات بين القدماء والمحدثين، ص24.

² - ابن منظور، اللسان (ص د ر).

³ - الحج /46.

للنطق بالجملة الموائية وهكذا»¹، ولهذا الغرض صَدَّرَ ابن حزم حديثه عن آلة النطق بالصدر نظراً للوظيفة الشاملة التي يقوم بها فسيولوجياً.

ب- الحلق: وضعه ابن حزم في المرتبة الثانية بعد الصدر وهو ترتيب اقتضاه أهمية الحلق في إصدار الأصوات وتعدد وظائفه ويطلق عليه مصطلح "الحنجرة" ويطلقون عليه اسم الحُلُقوم (بضم الحاء) ويقصدون به الحلق والقصبعة معاً² وفي حقيقته فهو الجزء الذي بين الحنجرة وأقصى الفم، ويقوم بعملية تضخيم الصوت والمعروف عند الكثير من الناس بـ "البلعوم"، وهو عبارة عن عضلة مثبتة في الخلف بفقرات العنق في العمود الفقري، وقد التفت القدماء إلى هذه المنطقة المهمة من التجاويف واعتبروا مبتدأها أقصى الحنك والحنجرة، وأما المحدثون فيرون أنها تقتصر على المنطقة التي تقع بين الحنجرة وأقصى الفم، لذلك فإن الحلق يشكل عضواً مشتركاً لمرور الغذاء، وقد عدَّ سيبيويه الحلق مخرجا من مخارج الأصوات فقال: «ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء»³، وتعدد ذكر الحلق عند الكثير من علماء التجويد بوصفه عضواً أولياً في إصدار أعمق الأصوات في نظر جمهور علماء العربية - ولا سيما علماء التجويد والقراءات القرآنية⁴، وأما الأصوات التي تخرج من الحلق فهي:

● الهمزة والهاء والألف من أقصى الحلق.

● العين والحاء من وسط الحلق.

● الغين والحاء من أدنى الحلق.⁵

¹ - حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، ص112.

² - ينظر: د. حنفي بن عيسى، المرجع نفسه، ص115.

³ - سيبيويه، الكتاب، 405/2.

⁴ - ينظر: أبو عمرو عثمان بن سعيد الدوني (ت 444هـ)، التحديد في الاتقان والتجويد، تح د غانم قدور الحمد، دار عمار، الأردن، ط1، 1999، ص28.

⁵ - ينظر: د. علي حسن مزيان، علم الأصوات بين القدماء والمحدثين، ص38.

ج- الرئة: وقد عبر عنها ابن حزم "أنابيب الرئة" وهي رؤية علمية متقدمة جدا عند ابن حزم، فقد كان الكثير من الناس يظن أن الأصوات تنشأ في الفم أو الحلق أو اللسان، ولكن التصويت يعتمد على عملية التنفس ويستخدم جهاز التنفس والهضم، وجهاز التنفس يمتد بين الرئتين والشفيتين والأنف.

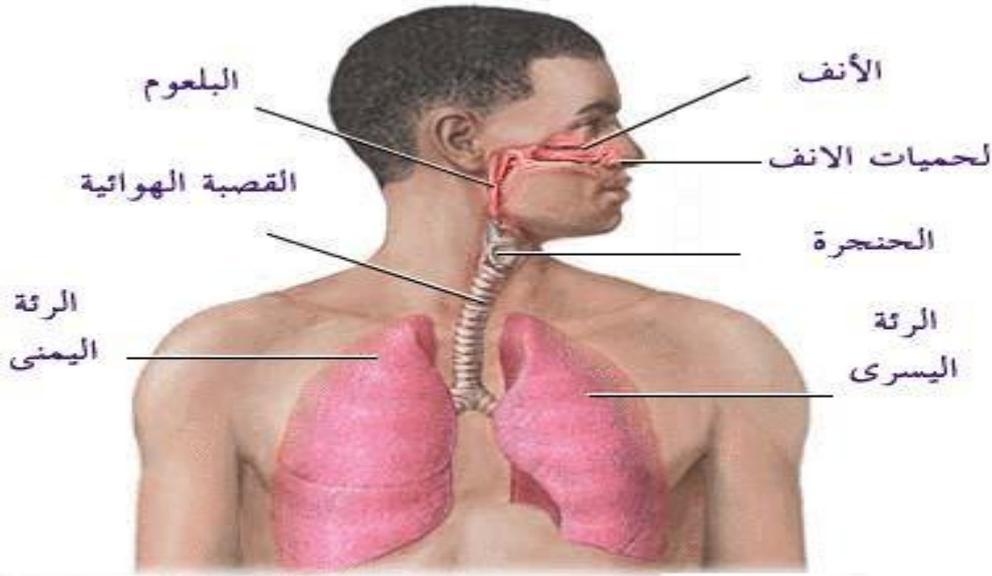
ويقصد ابن حزم بأنابيب الرئة الشعب الداخلية التي تنفث الهواء في قسبة الرئة، وعند طرد الهواء من الرئتين في الزفير يحدث نفسٌ وإذا أردنا تحويله إلى صوت وجب إكسابه تذبذباً سريعاً، وهذا ما نعلم إليه عند التكلم، و« يتطلب إصدار الهواء من الرئتين إحداث ارتفاع في الضغط يتبعه ضغط في الحجاب على الرئتين فيمر الهواء في قسبة الرئة وهي أنبوب يقارب طوله 11 سنتمراً مكون من عقد يجمع بينها غشاء متمغط ويعلو الحنجرة هذا الأنبوب»¹.

والرئة عبارة عن جسم مطاطي قابل للتمديد والانكماش لكنه لا يستطيع أن يتحرك لذاته ولذا فإنه في حاجة إلى عون القفص الصدري والحجاب والحاجز تحتها أسفل الصدر، وبغير الرئتين لا تتم عملية التنفس ومن ثم لا تتم عملية النطق بل لا تكون الحياة ذاتها².

والشكل الآتي يوضح أهمية الرئة في عملية النطق:

¹ عبد الفتاح إبراهيم، مدخل في الصوتيات، دار الجنوب للنشر، تونس، ص47.

² ينظر د. محمود حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1988، ص27.



الشكل رقم: 01

د- **الحنك:** جعله ابن حزم في الرتبة الرابعة عند تعرضه للأجهزة المنتجة للأصوات، « والحنك من الانسان والدّابة: باطن أعلى الفم من داخل وقبل، وهو الأسفل من طرف مقدّم اللّحيين من أسفلهما، والجمع أحنك، والحنكان الأعلى والأسفل¹، والأسفل لا يكاد يسهم في آلية النطق عند الإنسان، وقد وسم هذا العضو بتسميات أخرى منها: سقف الفم، وسقف الحنك، وغيرهما²، واستعمل علماء التجويد "مصطلح الحنك الأعلى" جريا على عادة علماء العربية في تسمية هذا العضو بهذا الاسم، ومن الذين تحدثوا عنه وحددوه: مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437هـ) حيث قال فيه: « نطح الغار الأعلى وسقفه»³.

ويضم هذا العضو أعضاء تسهم في آلية التصويت أهمها:

أ- **اللثة:** ومن أهم الأصوات التي تصدر عنها اللام والنون والراء وقد تشترك مع الأسنان فيخرج منها صوت الدال، والتاء، والضاد، والطاء، والزاي، والسين، والصاد.

¹ ابن منظور، اللسان (ح ن ك).

² محمد كمال بشر، علم اللغة العام "الأصوات" دار المعارف، القاهرة، 1986، ص70.

³ مكي بن أبي طالب، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دمشق، 1984، ص90.

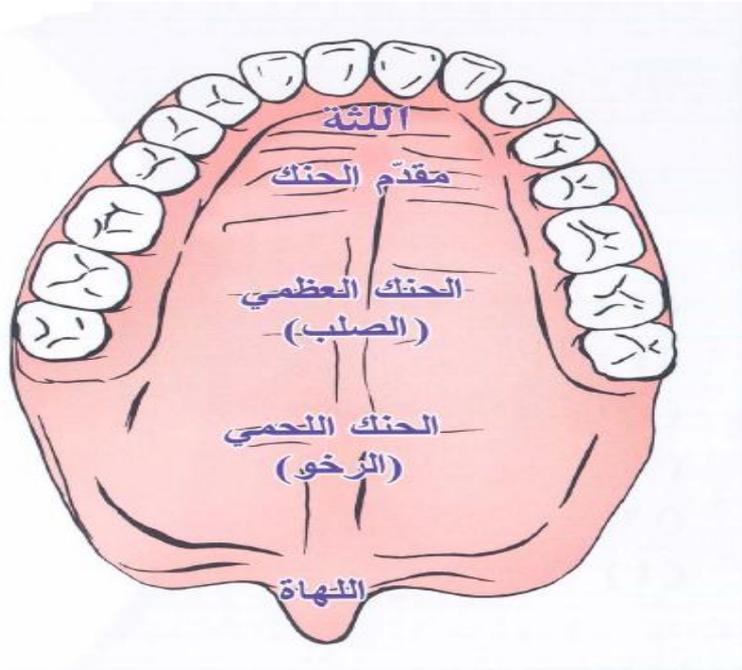
ب- الغار: ويصدر عنه صوت الشين والجيم والياء.

ج- شجر الفم: وتصدر عنه الأصوات

وقد حملت الأصوات الصادرة عن هذه الأعضاء أسماءها: الأصوات اللثوية،

والأصوات الغارية، والأصوات الشجرية.

والشكل رقم 02 يوضح جيدا أعضاء الحنك الأعلى:



الشكل رقم 02

هـ - اللسان: جعله ابن حزم في المرتبة الخامسة وتكرر ذكره عنده كلما تحرك اللسان مع بقية الأعضاء في إنتاج الأصوات، واللسان عضلة شديدة المرونة، وأهم جزء في الجهاز الصوتي، به تتنوع الأصوات وتتمايز فهو يسهم في تشكيل البنية العضلية النطقية.

ويعد من أهم الأعضاء المتحركة في تقسيم أعضاء النطق الانساني لما يقدمه من وظائف صوتية جمّة، وهو الأمر الذي دفع الناطقين إلى استعماله للتعبير عن وسيلة تواصلهم كلها، فسمي الكلام ومخزونه اللغوي بـ "اللسان"، وجاء الكثير من

الآيات على وتيرة هذا الإستعمال كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾¹ وغدا اللسان مصطلحا لعلوم اللغة، ويذاع في عصرنا اللسانيات أو الألسنية أو علم الألسن مرادفات لعلم اللغة.

« يتركب اللسان من 17 عضلة، ويتصل بالعظم اللاهوي ويتسم بسرعة الحركة وتتحكم حركاته إلى الأمام أو الخلف في طول الممر الفموي واتساعه، وتتسبب بالتالي في تغيير أشكال التجويف الفموي فيؤثر ذلك في الموجة الصوتية الصادرة عن الحنجرة»²، وقد قسمه الدارسون إلى: أقصى اللسان - وسط اللسان - حافة اللسان (أو الحافة، أدنى الحلق) - طرف اللسان - ظهر اللسان.³

وتبعا لهذه الأهمية لم يهمل علماء التجويد اللسان في كتاباتهم، بل سعوا لتبني ذكره لما يقدمه من وظائف مهمة في آلية إصدار الأصوات وأكثر من ذلك « سعوا إلى تصنيفه لتسهل عليهم مهمة تحديد أجزائه المهمة في إصدار الأصوات» كما ذكرنا سابقا، وقد إختصر بعض الدارسين الفم بلفظ اللسان أشار إلى ذلك أبوشامة (ت 665هـ) في قوله: « إن مخارج الحروف ستة عشر مخرجا وهي دائرة على اللسان ثلاثة: الحلق والفم والشفة، ويقال: الحلق واللسان والشفتان والمعنى واحد»⁴. ولذلك يعد إسهام اللسان في مخارج الأصوات ضروري جدًّا، والمتفق عند علماء التجويد « أن اللسان يخرج منه ثمانية عشر حرفا من عشر مخارج تفصيلية وأربعة إجمالية:

¹ - إبراهيم/14.

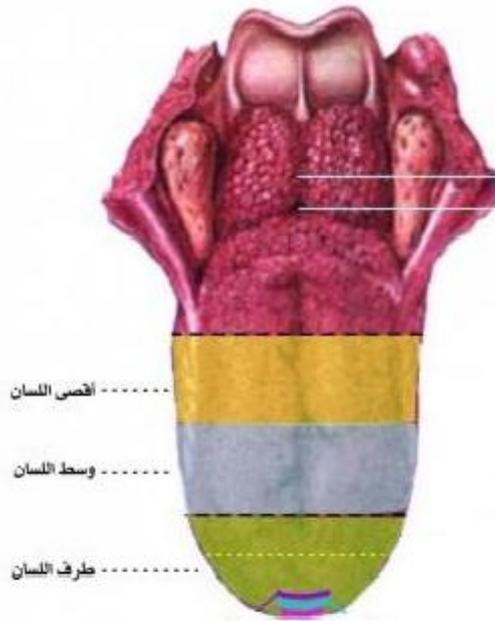
² - عبد الفتاح إبراهيم، مدخل في الصوتيات، ص59.

³ - علاء جبر محمد، المدارس الصوتية عند العرب: النشأة والتطور، دار الكتب العلمية، ص 56.

⁴ - أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمداني العطار، التمهيد في معرفة التجويد، تحقيق د. غانم قدور الحمد، دار عمار، الأردن، ط1، 2000، ص

- أقصى اللسان: مخرجان لحرفين - وسط اللسان مخرج واحد لثلاثة
- حروف - حافة اللسان مخرجان لحرفين - طرف اللسان خمسة مخارج لأحد عشر حرفاً¹

والشكل رقم 03 يوضح جيدا أقسام اللسان:



الشكل رقم 03

و- الشفتان: مفردها "شفة" و النسبة إليها شفهي، وهما عبارة عن عضلتين مستديرتين متحركتين ينتهي بهما الفم، لذا فإنهما يشكلان المخرج الأخير الذي تخرج منه الأصوات، ولذلك لا تقل أهميتهما في إصدار الأصوات عن سواها من أعضاء الجهاز النطقي، بل تكاد تضاهي أغلبها وعلى هذا الأساس أكثر علماء التجويد من الحديث عنهما في مؤلفاتهم.

واللغة بنت الشفتين، لذلك تقول العرب « لم ينبس ببنت شفة»، ذلك أنه لو بقيت الشفتان منغلقتان لا يمكن إنتاج كلام وبالتالي يستحيل الممارسة اللغوية.

¹ - سلمى بنت محمد بن صالح هوساوي، المختصر المفيد في علم التجويد، مكة المكرمة، ط3، 1433هـ، ص43.

إن لحركة الشفتين أثر بالغ في تشكيل العديد من الأصوات فهما من المخارج، تتمتعان بالحركة السريعة والمرونة وتتدخلان في نطق العديد من الأصوات ذات المخارج الأخرى « وتكونان تجويفا مؤثرا في طبيعة بعض الأصوات التي يعدل فيها أثر التجويف الفموي بإكسابها سمة التشفيه أو الإستدارة التي تميز حركة الضمة في العادة»¹، فعند فتح الشفتين بعد الإغلاق التام ينتج صوتا الباء والميم، وعند إغلاقهما جزئيا ينتج عنه صوتا الفاء والواو وعند إنفراجهما ينتج صوت الباء.

ويكثر ذكر الشفتين في الإشمام نجد ذلك في كلام عبد الوهاب القرطبي (ت 461هـ): « أما الإشمام فهو يشارك الرّوم في أنه إبقاء جزء من الحركة لكن بعد قطع الصّوت ولذلك يدركه المبصر دون الأعمى، واختصّ به المرفوع والمضموم دون المكسور والمفتوح لأن الضمّ من الشفتين وإذا أوماً بشفتيه أدركه الرائي»².

وقد ذكر الناظم مخرج الشفتين وأشار إلى الأصوات الناتجة عنهما ضمن المخارج فقال:

للفاءِ أطرافُ الثَّنَائِيَا العُلْيَا وبَاطِنِ الشَّفَا إِذ تَهَيَّأ

للِّبَاءِ والمِيمِ وواوِ خَرَجَا مَا جَاءَ بَيْنَ الشَّفَتَيْنِ مَخْرَجًا³

ونشير بأن للشفتين وظائف أخرى متعددة غير انتاج الأصوات فهما تساهمان في عملية الاطعام مساهمة فعّالة فبهما تعرف طبيعة العديد من الأطعمة كما تساهمان في عملية التنفس.

¹ - عبد الفتاح إبراهيم، المدخل في الصوتيات، ص 60.

² - أبو عمر عثمان بن سعدان الدوني، التجديد في الاتقان والتجويد، ص 103.

³ - أبو عمر الدوني، الشافية، تحقيق حسن أحمد عثمان، المكتبة المكية، مكة المكرمة، ط1، 1995، ص 81.

ي- الأسنان: وبالأسنان ختم ابن حزم مكونات جهاز النطق.

و الأسنان جمع سنّ، وهي كلمة مؤنثة، وهي مجموعة من العظام تتعدد وظائفها فهي للهضم، تقوم بطحن الطعام وتقطيعه، وتعطي للفم جمالا وكثيرا ما تغني الشعراء بأسنان المرأة، كما تؤدي وظيفة صوتية أساسية.

والأسنان أقسام من حيث تسميتها ووظيفتها وهي:

1- الثنايا: وهي التي تنصدر الفم وأول ما يظهر عند الصغر وعددها اثنا في كل فك.

2- الرباعيات: وعددها أربعة، إثنان من الجهة اليمنى وإثنان من الجهة اليسرى في كل فك.

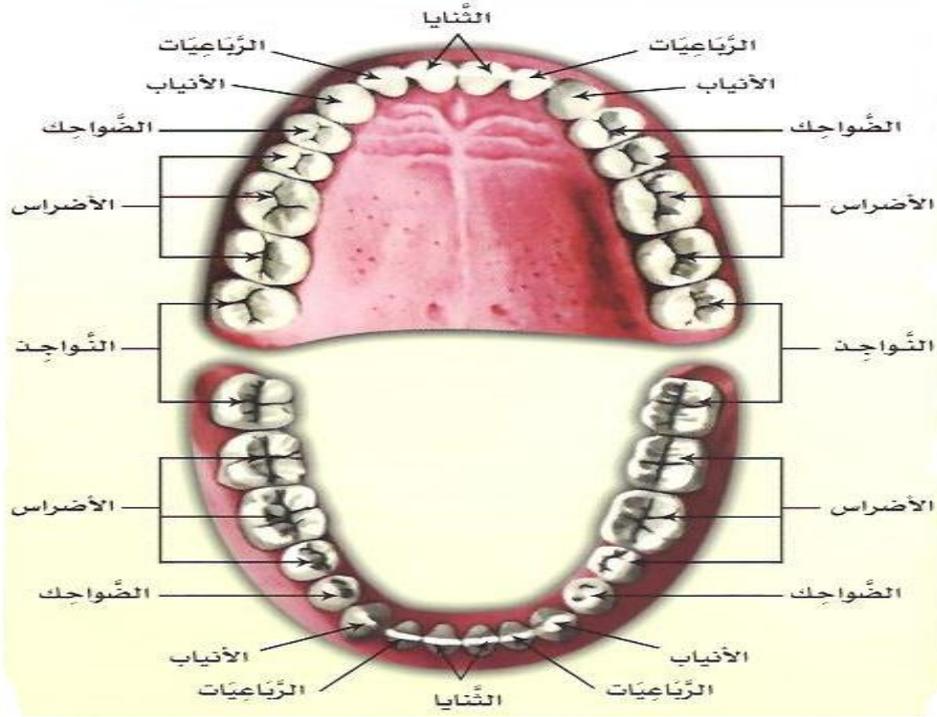
3- الأنياب: وعددها اثنان في كل فك واحد يمينا والثاني يسارا.

4- الضواحك: وعددها إثنان في كل فك.

5- الأضراس: وعددها ستة في كل فك ثلاثة في الجهة اليمنى وثلاثة في الجهة اليسرى ومجموعها اثنتا عشر ضرسا في الفم بما فيها النواجذ.

للأسنان أهمية في إنتاج الصوت، تظهر هذه الأهمية في حالة فقدان الأنسان بعض أسنانه فإنه يستعصي عليه نطق العديد من الأصوات اللغوية، وتدخل الأسنان في تشكيل العديد من المخارج وتؤثر في إخراج أصوات عديدة رغم أنها ثابتة، ويتكأ عليها اللسان كثيرا في الصياغة النهائية لأصوات مثل الدال والثاء، وقد تلتقي بالشفة فتحدث صوت الفاء، كما أن الغربال الذي يوزع الهواء المندفع من الرئتين فتمرره بكميات معلومة بحسب الصوت المشكل كما في الأصوات الصفيرية، وعدها المجودون من الأعضاء المهمة في الجهاز النطقي الإنساني، فقالوا: إن تحقيق القراءة الجيدة يتطلب « المواظبة على القراءة ورياضة اللسان

والأخذ من أفواه أولي العلم والإتقان، وإن انضاف إلى ذلك حسن الصوت وجودة الفكّ ودراية اللسان وصحة الأسنان كان الكمال»¹
والشكل رقم 04 يوضح جيدا أنواع الأسنان:



الشكل رقم 04

الخلاصة:

أود في النهاية أن أنبه بأن ابن حزم قدم عرضا متكاملًا عن أعضاء هذا الجهاز ولم يفصل دور كل عضو في عملية إنتاج الأصوات لأن ذلك من الصعوبة فجهاز النطق كل متكامل وقد يتعذر تقديم وصف دقيق والتفريق بين عضو وآخر خاصة في ضبط السمات المميزة للأصوات وفي تصنيفها لأن النطق عملية ديناميكية متفاعلة الأجزاء.

فهذا الجهاز الذي قدمه ابن حزم بهذه الصفة وشرحته بهذه الطريقة المختصرة هو جهاز موحد بين كل البشر على اختلاف لغاتهم وتعدد ألسنتهم وهو

¹ - أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمداني، التمهيد في معرفة التجويد، ص189.

آلة انتاج الكلام الذي به يتم التواصل بين أصحاب اللغة الواحدة وهو ما أشار إليه ابن حزم في قوله: « فتوصل بذلك نفس المتكلم مثل ما قد استبانته واستقر فيها إلى نفس المخاطب، وتنقله إليها بصوت مفهوم بقبول الطبع منها للغة إتفقا عليها فتستبين من ذلك ما قد استقر في نفس المتكلم، ويخرج إليها بذلك مثل ما عندها لطفًا من اللطيف الخبير»¹.

II. جهاز السمع:

1- تمهيد:

إن الحديث عن جهاز السمع يدخل في إطار علم الأصوات السمعي الذي حضر اسمه في العديد من الدراسات القديمة والحديثة، فذكروا الأذن وتحدثوا عن وظيفتها في استقبال الصوت العام باعتبارها آلة استقبال، وهناك من أضاف الحديث عن دورها في حفظ التوازن واستقبال الصوت وتحويله إلى الدماغ، وهذا كله إيمانًا منهم بالعلاقة الوطيدة بين الصوت والسمع.

والسمع لغة الإنصات والإصغاء وهو للإنسان وغيره قال تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾²، وقال ثعلب معناه خلاله فلم يشتغل بغيره³، ومن هذا نفهم أن السمع حاسة مشتركة بين الإنسان وغيره من المخلوقات.

سمع الصوت واستمع إليه وهو « استقبال الصوت بحاسة السمع كيفما كان الاستقبال ومؤدى هذا أن حاسة السمع تقوم بوظيفتها المنوطة بها، ومعروف علميا أن هذه الحاسة لا تتوقف عن استقبال الصوت حتى عندما ينام صاحبها وهي أكثر الحواس حياة ووظيفة»⁴.

¹ - الرسائل 96/4.

² - ق / 37.

³ - ابن منظور، اللسان (سمع).

⁴ - مكي درار، المجلد في المباحث الصوتية من الآثار العربية، دار الأديب، وهران، ط1، 2005، ص131.

وللسمع أهمية كبرى في اكتساب المعارف والثقافات والعلوم، ويقوم بدور أساسي في عملية فهم الأشياء وإدراك أسرارها، وهو أسبق من الكلام وحتى اللغة يتم تعلمها عن طريق السمع ولذلك عده ابن خلدون أب الملكات¹، ولعل ابن حزم كان يدرك جيدا قيمة السمع وفضله ولذلك نجده يتحدث عن جهاز السمع بعد الحديث عن آلة النطق، فتحدث عن كيفية تلقي الأصوات فقال: «... وهياً لها الهواء المندفَع بقرع اللسان إلى صمخ الأذان فتوصل بذلك نَفَسَ المتكلم مثل ما قد استبانته واستقر فيها نَفَسَ المخاطب وتنقله إليها بصوت مفهوم بقبول الطبع منها للغة إتفقا عليها، فتستبين من ذلك ما قد استبانته نَفَسُ المتكلم، ويستقر في نفس المخاطب مثل ما قد استقر في نفس المتكلم، ويخرج لها إليها بذلك مثل ما عندها لطفا من اللطيف الخبير»².

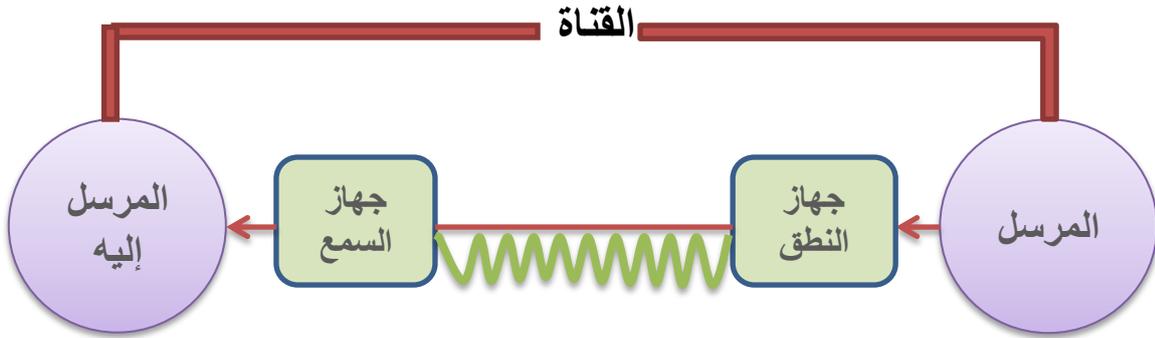
2- التواصل من منظور ابن حزم:

إن هذا النص يشرح العملية التواصلية بين المتكلم والمخاطب، أي بين المرسل الذي وظف أعضاء جهاز النطق في تشكيل كلمات وفق الأنساق اللغوية المتفق عليها، والمرسل إليه الذي استعد وهياً أعضاء جهاز السمع لإستقبال الأصوات المتنقلة عن طريق الهواء مشكلة قناة مستقيمة لتصل إلى صمغ الأذن والذي يحيلها إلى الدماغ، وهو وصف علمي اهتدى له ابن حزم أكدته الدراسات الحديثة.

¹- ينظر: ابن خلدون، المقدمة، 2/

²- الرسائل، 96/4.

وبذلك يكون ابن حزم قد شرح العملية الفيزيائية لانتقال الصوت في شكل ذبذبات هوائية من المنتج إلى المستقبل، وهي عملية شغلت بال القدماء العرب من أمثال ابن سينا، والفارابي، والمحدثين من الذين راحوا يفسرون طريقة انتقال الأصوات في إطار عملية التلقي والتواصل التي تحدث عنها سوسير وجاكسون، ويلمسليف وغيرهم، وفق المخطط الآتي:



لقد أراد ابن حزم أن يوضح أن اللغة أكثر طرق الإتصال الانساني استعمالاً وأعظمها تطوراً، تقوم بنقل المعلومات بطريقة تلقائية منظمة أراد لها الله سبحانه وتعالى ذلك وتدخل في تكريم الإنسان الذي فضله الله بهذه اللغة وبهاته الأجهزة النطقية والسمعية والعصبية.

إن ما اهتدى إليه ابن حزم وهو يتحدث عن مراتب العلوم وما جرّه إليه فكره رغم أنه لم يكن يقصد أن يتخصص في هذا الجانب، قد أشار إليه حديثاً جاكسون عند حديثه عن وظائف اللغة فقال: « إن كل عملية لغوية تقوم على أطراف هي:

- 1- الباث أو المرسل
- 2- المتلقي أو المرسل إليه.
- 3- الرسالة أو الخطاب.
- 4- عملية البث وهي عملية تركيب الرموز.
- 5- عملية التلقي وهي تفكيك الرموز.

6- القناة المشتركة بين الباث والمتلقي، فوظيفة المتلقي هنا هي الوظيفة الإفهامية وتتعلق بالباث الوظيفة الإنفعالية»¹.

لقد تحدث ابن حزم جيدا عن عملية التخاطب فقال: « فتوصل بذلك نفس المتكلم مثل ما قد استبانته واستقر فيها إلى نفس المخاطب وتنقله إليها بصوت مفهوم بقبول الطبع منها للغة إتفا عليها، فتستبين من ذلك ما قد استبانته نفس المتكلم ويستقر في نفس المخاطب مثل ما قد استقر في نفس المتكلم»²، فهو يرسم لعملية الإتصال قطبين هما المرسل (الذي سماه المتكلم) والمرسل إليه (الذي سماه المخاطب) وأن الخطاب ينتقل من نقطة البداية إلى نقطة الوصول ولذلك يسلك ممرا سماه العديد من العلماء القناة، وهاته العملية تستعين كما أشار الدكتور التواتي بن التواتي بجهازين: « جهاز الإرسال وهو هنا الجهاز الصوتي، وعندما يبلغ الخطاب المنتهي يوجد جهاز لاقط يتلقى تلك الرموز ويترجمها ويعيدها إلى الصيغة التي انطلق بها الخطاب من المصدر»³.

3- أعضاء جهاز السمع في نظر ابن حزم:

أ- تمهيد:

لقد تحدث ابن حزم عن الجوانب الوظيفية للصوت وتطرق إلى الأعضاء المنتجة له، ولم يقف عند هذا الحد بل توسع في شرحه إلى الجهاز المستقبل المتمثل في حاسة السمع لدى الإنسان وبين كيفية الإستقبال والتحويل، حتى يحصل الفهم والإدراك لما بثه المتكلم كما عبر عنه. وقد سُمي هذا الجانب من الدراسة بعلم الأصوات السمعي، وهو « علم يهتم بدراسة عملية إدراك الفروق لأصوات الكلام والإختلافات في النطق»⁴.

¹ - محمد عزام، الأسلوبية (منهجاً نقدياً)، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، 1989، ص117.

² - الرسائل، 4 / 96.

³ - التواتي بن التواتي، مفاهيم في علم اللسان، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص 58.

⁴ - مكي درار وسعاد بسناسي، المقررات الصوتية، منشورات دار الأديب، ص31.

لقد عبر ابن حزم عن مرحلة استقبال الأصوات بقوله: « وهياً لها الهواء المندفع بقرع اللسان إلى صمخ الأذان فتوصل بذلك نفس المتكلم... إلى نفس المخاطب» وهو إنما عبر عنه بصمغ الأذان لأن الصمغ أو الصماغ كما يسميه آخرون هو العضو الأساسي الذي يقوم بالدور الأكبر في عملية استقبال الصوت ونقله إلى الدماغ.

ب- الإدراك الصوتي:

إن حاسة الاستقبال الصوتي هي الأذن، وخصّها ابن حزم بالذكر، وهي العضو الأساسي في جهاز السمع، وهي التي تسهم في عملية الإنصات والسمع وإحداث الطرب والنشوة في النفس وتغنى بها الشعراء حتى أنهم قالوا: والأذن تعشق قبل العين أحياناً.

إن الأذن تنقل التموجات الصوتية وتحولها عبر أعضاء أخرى إلى الدماغ لتتم عملية التحليل ويتحقق الفهم ويتم الإدراك، وهي عملية معقدة متكاملة بين أجهزة التصويت والسمع والإدراك وقد يصعب تمثيلها.

ج- وظيفة الأذن:

- **تعريف:** الأذن هي عضو يستخدم من قبل الكائنات الحية لإستشعار الصوت ضمن ما يعرف بحاسة السمع، ويستخدم المصطلح إما للإشارة للعضو الخارجي الظاهر من الجهاز السمعي وكذلك للعضو الداخلي السؤول عن المعالجة الأولية للصوت.

- أقسام الأذن:

يتكون عضو الأذن من ثلاثة أجزاء هي:

- الأذن الخارجية، والأذن الوسطى والأذن الداخلية « ومما هو معروف أن للإنسان أذنين يمينى ويسرى، وأن الوظيفة السمعية للأذن تختلف عن أختها

فيستطيع الانسان أن يتعرف على اللّحن إذا سمعه من أذنه اليسرى ووصل مباشرة إلى نصف دماغه الأيمن، كما يتعرف الإنسان جيّداً على الخطاب إذا سمعه من أذنه اليمنى وصبّ مباشرة في نصف دماغه الأيسر، ويفهم من هذا أن الجزء الأيسر من الدماغ يكون تعلم الأنظمة والجزء الأيمن للدماغ مخصّص للتعرف على الألحان»¹.

إن الأذن الخارجية تلتقط الذبذبات الهوائية، والأذن الوسطى تحول الضغط الصوتي إلى ذبذبات ميكانيكية وأما الأذن الداخلية فإنها تحول الذبذبات إلى واقع عصبي ترسله نحو الدماغ²، وما يهمنا في هذا هو إشارة ابن حزم إلى عملية التقاط الصوت اللغوي عن طريق الأذن الخارجية التي يكمن دورها في تجميع ونقل الأمواج الصوتية من البيئة المحيطة وتوصيلها إلى الدماغ، وقد اقتصر في ذكره لأعضاء جهاز السمع على الصماخ فقال: « وهياً لها الهواء المندفَع بقرع اللسان إلى صمخ الأذان فتوصل بذلك نَفَسَ المتكلم إلى نَفَسِ المخاطب»³، ولم يكن هذا من باب جهله لبقية الأعضاء وإنما كان يعرف جيداً أهمية هذا العضو في العملية السمعية.

فالصماخ ويسمى الممر السّمي أو قناة الأذن « هو ذو شكل أسطواناني مفتوح من جهة الصوان، ومغلق النهاية من جهة الطبلّة، طوله حوالي 25 ميلمتراً وقطره ما بين (12 و 8 ميلمتر)، يقوم بعملية تضخيم الموجات الصوتية التي تصل إليه من ضعفين إلى أربعة أضعاف ويساعده شكله الأسطواناني على أن يقوم بدور فراغ رنان ومن بعده تأتي طبلّة الأذن»⁴.

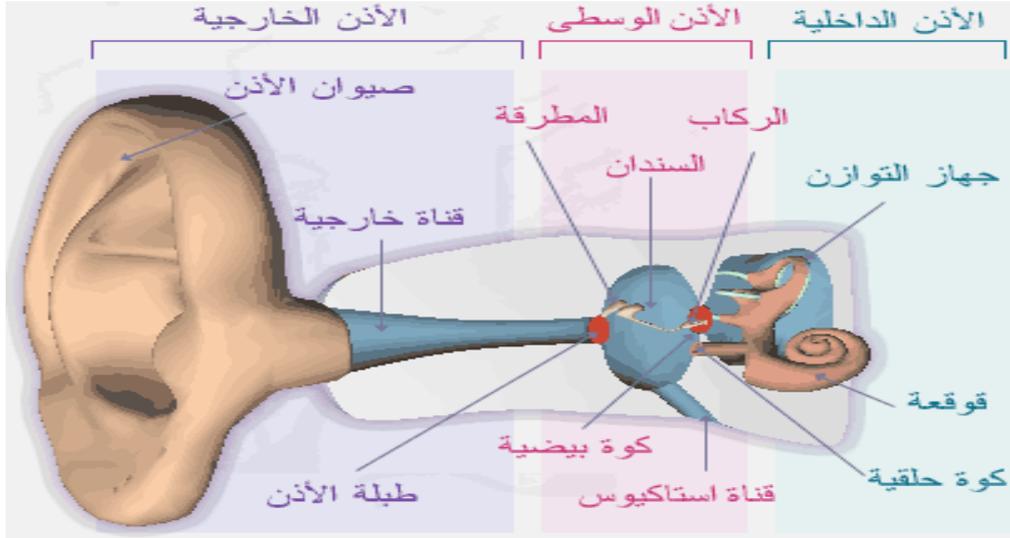
¹ - عصام نور الدين، علم الأصوات اللغوية (الفونيتيكا)، دار الفكر اللبناني، ط1، 1992.

² - ينظر: بسام بركة، علم الأصوات العام، مركز الانماء القومي، لبنان، ط1، 1988، ص 51.

³ - الرسائل 4 / 96.

⁴ - مكي درار وسعاد بسناسي، المقررات الصوتية، ص 72.

والشكل الآتي يوضح أعضاء جهاز السمع.



الشكل رقم 05

4- علاقة الصوت بالسمع:

لقد أراد ابن حزم في نصوصه المذكورة أنفاً أن يصل إلى شرح عملية إنتاج الكلام وعلاقتها بالسمع فقال: « وهياً لها الهواء المندفع بقرع اللسان إلى صمخ الأذان فتوصل بذلك نفس المتكلم مثل ما قد استبانته واستقر فيها إلى نفس المخاطب»، فعملية الكلام معقدة تشترك فيها عدة أجهزة عضوية، وتتم بمراحل مختلفة ولكل مرحلة أجهزة خاصة تقوم بمهام معينة تحت إدارة العقل، ذلك أن اللغة في حقيقتها العلمية ظاهرة فكرية يحكمها العقل، وتحتكم إليه، والعقل عقول ورباط لما يقع تحت سلطانه، ومن هذه النظرة لا يمكن للمتكلم المرسل أو المستمع المستقبل، أن يتعامل مع اللغة خارج مجال العقل.

إن ابن حزم وهو يتحدث عن استقرار الفهم لدى السامع مثلما كان عند المرسل إنما يقصد عملية التقاط الصوت اللغوي عن طريق الأذن الخارجية التي

يكمن دورها في تجميع ونقل الأمواج الصوتية من البيئة المحيطة وتوصيلها إلى الأذن الوسطى التي تقوم بتحويل الموجات الصوتية إلى طاقة ميكانيكية وتوصيلها إلى الأذن الداخلية بواسطة النافذة البيضاوية التي تنقل حركة العظيمات والتي تؤدي إلى توليد نبضات عصبية متتابعة يتم نقلها عن طريق العصب السمعي إلى الدماغ فيتم فهم وإدراك وتفسير النبضات في شكل أصوات، ولعل هذا المسار العلمي هو الذي كان يقصده ابن حزم في قوله: « وتنقله إليها بصوت مفهوم بقبول الطبع منها للغة إتفا عليها فتستبين من ذلك ما قد إستبانته نفس المتكلم»¹.

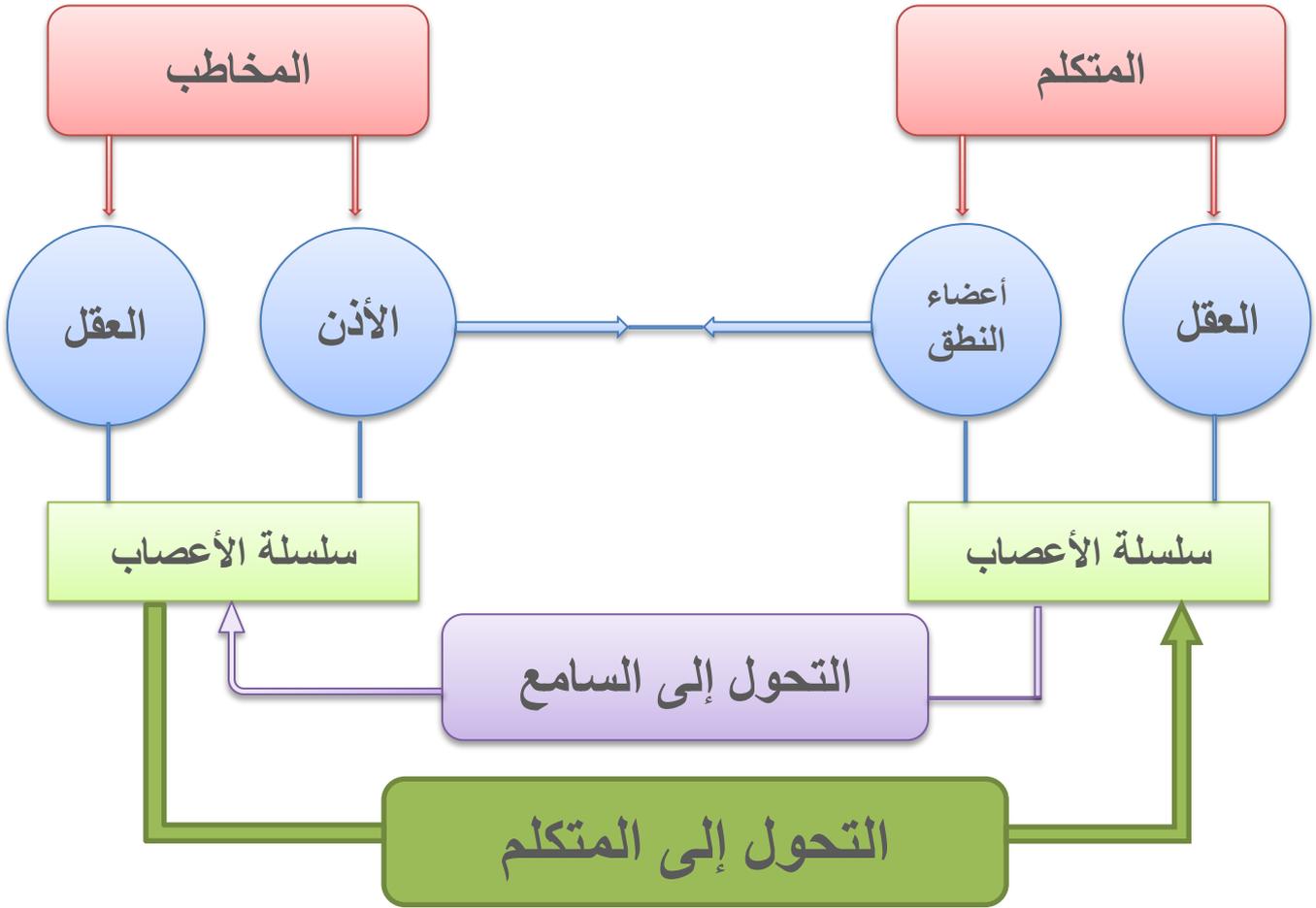
ومن هنا نرى أن علاقة الصوت بالسمع علاقة آلية طبيعية تلقائية تفضي في النهاية إلى عملية عقلية ينجم عنها اتخاذ موقف وقرار.

إن الصوت المنبعث من المرسل والسمع المستقبل لدى المرسل إليه يحقق العملية التواصلية ويؤدي إلى التفاهم بين الطرفين في حال إستعمالهما للغة يتحكم فيها الطرفان، وبذلك تحدث المنافسة وهي بداية التحليل، « حيث يحاول المرسل فهم المرسل إليه، ويحاول المرسل إليه فهم الرسالة المرسلة إليه بتحليل مكوناتها الصوتية من خلال ما في شبكته اللغوية مع نوع من التحويل والتأويل»²، وهي عملية عجيبة مدهشة حقًا ولعل ذلك ما جعل ابن حزم يقف منها موقف المنبهر المتعجب ولذلك نجده يختم بقوله: « من لدن خبير حكيم» وهي عبارة لا تصدر إلا عن عالم مؤمن يملك من المعرفة الشيء الكثير ويدرك عظمة هذا الخلق.

¹ - الرسائل، 4 / 96.

² - مكي درار وسعاد بسناسي، المقررات الصوتية، ص 84.

ويمكن تمثيل قول ابن حزم في علاقة المتكلم بالمخاطب بالشكل الآتي:



المخطط يمثل عملية التواصل

● المبحث الثاني: التشكيل الصوتي عند ابن حزم:

1- تمهيد:

تعد اللغة أداة تواصل وتفاعل بين المرسل والمرسل إليه وهي ظاهرة إجتماعية وثقافية قابلة للتطوير والتغيير مادامت أصواتها إكتسبت معانيها عن طريق الإختيار والإصطلاح، وهي عامل حضاري يتولّى نقل تراث الأمة إلى أجيالها المتعاقبة، ويعني بنقل المعارف بين الشعوب المتباعدة لغات وسكنى. وأثناء عملية النقل وبفعل الاحتكاك يحدث للغة تغيير صوتي وحتى تغيير دلالي، وقد يكثر هذا التغيير أو يقل، وقد يكون ملحوظا أو غير ملحوظ، وتختلف اللغات في درجة الإستجابة لهذا التغيير فبعضها يتغير بسرعة، وبعضها الآخر بطيء التغيير، وقد يحدث هذا التغيير إما قصدا يرافقه تخطيط لغوي يهدف إما إلى تطوير اللغة وحفظها أو لتحقيق اقتصاد لغوي ودفع الثقل عنها، أو لتوسيعها حتى تستوعب دلالات جديدة.

وقد يحدث التغيير نتيجة تفاعل لهجي فيعمد مستعملو اللغة الجديدة إلى تبديل العديد من أصواتها دون سابق قصد، يدفعهم في ذلك عسر نطق بعض الأصوات لتقارب مخارجها أو اشتراكها في المخرج نفسه.

2- أقسام الأصوات:

فالصوت هو وسيلة إتصال مهمة بين الكائنات الحية وهو يشكل وسيلة إنذار وطريقة للغزل ونقل للمعلومات، والمحافظة على مساحة العيش ومكان المعيشة، وهو وسيلة إتصال مركزية وأساسية يستعملها الإنسان لنقل المعلومات وتبادلها والتعبير عن المشاعر.

أما الضجيج وهو الذي صنفه ابن حزم في المرتبة الثانية وقال إنه لا يدل على معنى وإنك إن سمعته لم تدر ما هو فهو صوت غير مرغوب فيه ترفضه

الأذن وتأبى سماعه، وهذا إحساس شخصي يتعلق بالحالة النفسية والجسمية، بل يعده البعض ضرراً يقلق راحة الإنسان ويعكر صفوه، ويلوث عليه السمع، وقد أدخل ابن حزم في الضجيج أصوات المجانين التي لا تحقق الفائدة فقال: «ويدخل في هذا أيضاً الكلام الظاهر من المبرسمين والمجانين ومن جرى مجراهم» إن هذا التقسيم الذي أورده ابن حزم يدل على أنه كان يقصد الحديث عن الصوت اللغوي بالدرجة الأولى، فأما الصوت بمفهومه العلمي فهو ظاهرة فيزيائية مصدرها اهتزازات أو حركة سريعة لجسم معين وهذا يؤدي إلى انتشار جزيئات الهواء بشكل موجة صوتية «عن عدد المرات التي بها الأمواج الصوتية تعود على نفسها بوحدة زمنية معينة تسمى ذبذبات الصوت أوذبذبة الموجة، والمسافة التي يقطعها الصوت في وحدة زمن معينة تسمى سرعة الصوت وتعرض سرعة الصوت بالمعادلة الآتية:

$$\text{السرعة} = \text{طول الموجة} \times \text{ذبذبة الموجة}^1$$

3- أبعاد الصوت اللغوي عند ابن حزم:

1/ مصطلح الصوت اللغوي:

أ- الصوت لغة: الجرس، والجمع أصوات، قال ابن السكيت الصوت صوت الإنسان وغيره، والصائت: الصائح، ورجل صييت أي شديد الصوت، وقد يؤنث الصوت كما في قول الشاعر:

يَا أَيُّهَا الرَّكْبُ الْمُزْجِيُّ مَطِيَّتُهُ سَائِلُ بَنِي أُسْدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ؟

فإنما أنثه لأنه أراد به الضوضاء والجلبة على معنى الصيحة، وصات الرجل يصوت صوتاً، وصوت يصوت تصويماً فهو مصوت، وذلك إذا صوت بنسان فدعاه.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (دط)، (دت)، (صوت).

والصيت الذكر يقال ذهب صيته، وكل ضرب من الغناء صوت¹، قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾²، وقال: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾³ فيما يؤمر بخفض الصوت أثناء الحديث من باب التأدب وإلا فهو شبيه بالحيوان الذي لا وازع له.

ب- وأما في الإصطلاح فقد ثبت علمياً أن الصوت إهتزاز محسوس في موجات الهواء تنطلق من جهة الصوت، فتسبح في الفضاء ويستقر الجزء الأكبر منها في السمع بحسب درجة تذبذبها فتوحي بدلائلها؛ فرحاً أو حزناً، نهياً أو أمراً، خبراً أو إنشاءً، صدى أو موسيقى، أو شيئاً آخر عادياً مما يفسره التشابك العصبي في الدماغ أو يترجمه الحس المتوافر في أجهزة المخ بكل دقائقها وفي ذلك قال ابن سينا (ت 428هـ) « الصوت تموج الهواء ودفعه بقوة وسرعة من أي سبب كان »⁴

2/ ربط الصوت بالدلالة:

ربط ابن حزم الصوت بالدلالة، فإما أن تدل على معنى⁵ فالذي لا يدل على معنى عبرنا عنه بالضجيج وعبر عنه ابن حزم بكلام المجانين الذي يفتقد إلى الفائدة، وقد دعا إلى عدم الإشتغال به ما دام لا يحقق غرضاً وإنه من غير المعقول أن ينال الإهتمام والعناية، فكل صوت سمع ولم يفهم منه غرض فهو ضرب من هاته الأصوات التي يقصدها، فما أكثر هذه الأصوات من قرع وضرب وقلع وسقط واحتكاك وهبوب وصعود وهبوط.

وفي حديثه عن الصوت الدال على معنى فإنه يقسمه بدوره قسمين فيقول: « ثم نرجع فنقول إن الصوت الذي يدل على معنى ينقسم قسمين: إما أن يدل

¹ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (دط)، (دت)، (صوت).

² - الإسراء/ 64.

³ - لقمان/ 19.

⁴ - ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطيان ويحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ص7.

⁵ - ينظر: ابن حزم، الرسائل، 4/ 104.

بالطبع وإما أن يدل بالقصد، فالذي يدل بالطبع هو كصوت الديك الذي يدل في الأغلب على السحر وكأصوات الطير الدالة على نحو ذلك وكأصوات البرارج والبُرْك والإوز والكلاب بالليل الدالة في الأغلب على أنها رأت شخصا وكأصوات السنابير في دعائها أولادها وسؤالها عن طلبها السفاد وعند التضارب وكل صوت ذلك بطبعه على مصوته»¹.

الواضح إن ابن حزم إنما يقصد بقوله: «الصوت الدال بالطبع» ما فطرت عليه المخلوقات بفعل الغريزة، فهاته أصوات جبلت عليها تصدر بدافع غريزي وهي أصوات تحمل في حقيقتها رغبات أو تعبر عن وضعيات لها علاقة بالحالات الاحساسية والنفسية والبيولوجية.

وقد كان هذا الموضوع محل دراسة لدى علماء الطبيعة والحياة حيث درسوا أصوات الحيوانات على اختلاف طبائعها وقد أوجدوا مسميات لكل صوت، ونجد ابن جنّي يعزي نشوء اللغات إلى هذه الأصوات المسموعة فقال: «وذهب بعضهم على أن أصل اللغات إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الرياح، وحنين الرعد، وخرير المياه، وشحيح الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الطيبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل»².

فهنا ربط بين أصوات الإنسان وبين أصداء الطبيعة وأصوات الكائنات الحيوانية المنتشرة في الطبيعة، وقد أدى هذا الربط إلى نشوء اللغات وهو رأي لا يمثله ابن جنّي وحده بل ذهب إليه الكثير من العلماء حتى المحدثين من علماء اللغة من أمثال العالم وتني Whitney³. وهذا لا يمانع من أن الله سبحانه وتعالى هو ملهم الأصوات ومعلم الكائنات وهو أمر مسلم به وهو إعتقاد لا تشوبه شائبة، وأما

¹ - ابن حزم، الرسائل، 105/4.

² - ابن جنّي، الخصائص، 46 / 1 - 47.

³ - علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، نهضة مصر، القاهرة، ط9، 2004م، ص95.

البحث في أصل اللغات فهو أمر آخر، ولعل ذلك ما أشار إليه ابن حزم في قوله: « وإما أن يدل بالقصد »¹ فالقصد يرتبط بالإرادة وَقَصَدَ الشيءَ تَعَمَّدَهُ قال تعالى: ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾² ثم يواصل ابن حزم طبيعة الصوت المقصود فيقول: « وأما الصوت الذي يدل بالقصد فهو الكلام الذي يتخاطب الناس به فيما بينهم ويطراسلون بالخطوط المعبرة عنه في كتبهم لإيصال ما استقرَّ في نفوسهم من عند بعضهم على بعض، وهذه هي التي عبَّرَ عنها الفيلسوف بأن سمّاها "الأصوات المنطقية الدالة" .»

إن المراد بهذا الطرح هو الجانب الوظيفي للصوت والمتمثل فيما اصطلحت عليه الجماعة البشرية باللغة؛ فهو يحلل وظيفة اللغة المتمثلة في التخاطب بين البشر وتحقيق عملية التواصل فيما بينهم وقد يرقى هذا التواصل فيتحقق بالمكتوب أيضا يفهم ذلك من قوله: « ويطراسلون بالخطوط المعبر عنها في كتبهم لا يصل ما استقر في نفوسهم...»³، فالتواصل بالمنطوق يفرض حضور الجانبين المرسل والمرسل إليه ويأتي الصوت اللغوي فيحدث العملية، أما استعمال اللغة المكتوبة فإنها تحقق التواصل الحضاري والتواصل التاريخي والجغرافي بين الأمم والأجيال وذلك بما تحمله بطون الكتب والمؤلفات الورقية من معارف تنتقل عبر الأحقاب الزمنية؛ وقد استدل ابن حزم بالفيلسوف اليوناني فرفوريسوس⁴ الذي سمّى هذه الأصوات "بالأصوات المنطقية الدالة"، وراح ابن حزم يردّ مسبقا على أي رأي يطرح في هذه القضية بشأن أصوات بعض الحيوانات التي يتوهم البعض بأن أصواتها دالة « كالذي يعلمه الزرزور والبيغاء والعقّاق من حكاية كلام يُدرب عليه قائم المعنى، فليس ذلك كلاما صحيحا ولا مقصودا به إفهام معنى ولا يعدو

¹ - ابن حزم، الرسائل 4 / 105.

² - لقمان / 19.

³ - ابن حزم، الرسائل 4 / 106..

⁴ - فرفوريسوس: عالم يوناني ظهر بعد جالينوس شرح كتب أرسطوطاليس، (ينظر الفهرست ص 313)

ما علم ولا يضعه موضعه، ولكن يكرره كما يكرر سائر تغريده كما عوّدّه، وكثير من الحيوان في طبيعته أن يصوت بحروف ما على رتبة ما، وذلك كله بخلاف كلام الإنسان الذي يعبر به عن أنواع العلوم والصناعات والأخبار وجميع المرادات»¹.

ويفصل ابن حزم الحديث في هذا التقسيم الذي أورده بضرب الأمثلة وبالمزيد من الشرح والتحليل فيقول: « إن هذا القسم الذي ذكرنا أنه يدل بالقصد ينقسم قسمين إما أن يدل على شخص واحد فهو كقولنا: زيد، وعمرو، وأمير المؤمنين، والوزير، وهذا الفرس، وحمار، وخالد، و ما أشبه ذلك. فهذه إنّما تعطينا إذا سمعنا الناطق ينطق بها الشخص الذي أراد الناطق وحده، لسنا نستفيد منه أكثر من ذلك، وليس هذا الذي قصدنا الكلام عليه لأن هذه الأسماء لا يضبط وحدها من اسمها لفرق نذكره بعد هذا إن شاء الله عز وجل»²، فالمراد بذلك تسمية الأشياء بالمفرد وهو ما عبر عنه النحاة الدال على الواحد خلافا لجماعة الأشياء أو ما يدل على مجموع الجنس الواحد، فالسامع لمثل هذا الصوت يرتسم في ذهنه مفرد الشيء.

ثم يتطرق إلى القسم الثاني « وهو الذي يدل على أكثر من واحد فهو كقولنا: الناس والخيل والحمير والثياب والألوان وما أشبه ذلك، فإن كل لفظة مما ذكرنا تدل إذا قلناها على أشخاص كثيرة العدد حدًا، وقد يقوم مقام هذه الألفاظ أيضا في اللغة العربية أسماء تقع على الجماعة كما ذكرنا، وتقع أيضا على الواحد، إلا أن حال المتكلم تبين عن مراده بها كقولك: "الإنسان" فإن هذه اللفظة تدل على النوع كله، كقوله عز وجل ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾³ فإنما عنى جماعة ولد آدم وتقع

¹ - ابن حزم، الرسائل 4 / 106.

² - ابن حزم، الرسائل، 4 / 107.

³ - العصر / 2.

أيضا هذه اللفظة على واحد فنقول: أتاني الإنسان الذي تعرف وأنت تريد غلامه أو زوجته أو واحدا من الناس بعينه»¹.

إن تعمق ابن حزم في قضية الصوت الدال جرّه إلى تفريع الاسم إلى مفرد وجمع وإلى ما صار يعرف عند النحاة الاسم الدال على جنس الأشياء، فالمفرد ما دل على الواحد وقد أعطى في ذلك أمثلة، والجمع ما دل على أكثر من اثنين وضرب لنا أمثلة وقد أغفل المثني في هذا التقسيم إلا أنه تداركه في كتابه الأحكام². لقد خصص ابن حزم بابا يتحدث فيه عن الأسماء التي إذا ما سمعنا الناطق ينطقها ارتسم في الذهن معنى معيناً يتماشى مع طبيعة الصوت المسموع، وقد عنونه بقوله: باب الكلام على الأسماء التي تقع على جماعة الأشخاص³ فقسم هذا الباب أقساما ثلاثة، إما أن يكون لفظا يسمى به أشخاص كثيرة مختلفة بأشخاصها وأنواعها، وسماه: جنسا وإما أن يكون لفظا تسمى به أشخاص كثيرة مختلفة بأشخاصها.

3- أصوات الألفاظ عند ابن حزم:

تعامل ابن حزم مع الألفاظ بطريقة متداخلة فقد انطلق من طبيعتها الأولى في مرحلة نطقها فعدّها أصواتا فقال: «الإسم صوت موضوع باتفاق»⁴ وكذلك بالنسبة للفعل فقال: «وهذه الكلمة صوت موضوع باتفاق...»⁵ واكتفى في الحرف بذكره ما دام لا يحمل دلالة في نفسه، ثم عالجه بطريقة النحاة فراح يعدد أنواع الإسم وأقسام الفعل وحالاته مستدلا بآراء النحاة دون أن يسمي عالما من علماء النحو، ثم تحدث عن الوجه البلاغي لأقسام الكلام أكان مفردا أم مركبا، فالمفرد لا يفيدك فائدة أكثر من نفسه والمركب يفيدك خبرا صحيحا، وتحدث عن الأخبار

¹ - ابن حزم، الرسائل 4 / 107.

² - ابن حزم، الأحكام في أصول الأحكام، ص 28.

³ - نفسه، 4 / 108.

⁴ - ابن حزم، الرسائل 4 / 107.

⁵ - نفسه 4 / 189.

والأوصاف التي تقع على المسميات لا على الأسماء وأن المسميات هي المعاني، والأسماء هي عبارات عنها فثبت بهذا أن الاسم غير المسمى، وقد خصص باباً سماه "الكلام في الاسم والمسمى" عالج الأمر فيه من زوايا فلسفية وبيانية ونحوية متداخلة، وقد عدَّ الأسماء والأفعال أصواتاً موضوعاً باتفاق لا تدل أجزاءها على معنى.

وقد إنطلق ابن حزم في تعليقه لطبيعة الألفاظ من قناعاته الفقهية الظاهرية فظاهر اللفظ الأول ما يسمع منه وهو ما سماه اللسانيون الدال ثم ما يتحقق في الذهن وهو المدلول، ولذلك عرفه بأنه صوت.

أ- الاسم صوت موضوع:

لقد عرف ابن حزم الاسم بأنه صوت موضوع باتفاق لا يدل على زمان معين وإن فرقت أجزاؤه لم تدل على شيء معين¹، وهو بذلك أراد أن يميزه عن الفعل والحرف، وقسمه قسمين معارف ونكرات، وأن للأسماء أبدال يقصد به الضمائر. وهذه كلها مسموعة تحمل في نفسها دلالات اصطلاح الناس عليها من الأسماء ما دل على المفرد وما دل على الجمع، وأغفل الحديث عن المثني، ومن الأسماء لفظ معناه معنى الجمع ويسمونه "اسم الجنس" وهو ما دل على كتلة واحدة متماسكة قد يكون لها أجزاء تتكون منها من انضمام بعضها إلى بعض، ولكن لا يمكن أن يكون لها أفراد مستقلة متعددة بحيث يستقل كل فرد منها بنفسه كاملة ويتميز بذاته المركبة من أجزاء خاصة به، وكرات يقوم عليها كيانه التام نحو قولنا: الحديد - الذهب - الخشب - الشعب - الإبل - الخيل...، واسم الجنس كما شرح ابن حزم ينقسم إلى قسمين:

¹ - ابن حزم، الرسائل، 4/ 187.

- إسم الجنس الفردي وهو الذي يصدق على القليل والكثير من الماهية (أي من الحقيقة الذهنية) من غير اعتبار للقلة أو الكثرة مثل: هواء - ضوء - دم، فكل واحد من هذه و أشباهها يسمى بهذا الإسم، سواءً أكان قليلا أم كثيرا.

- إسم الجنس الجمعي: وهو ما شرحناه عند تعريف إسم الجنس من أنه يدل على كتلة أو جماعة من جنس معين من الأشياء، نحو: الشعب - الخيل - الإبل - القوم، وقد توسع ابن حزم في حديثه عن الإسم من الجوانب اللغوية والفقهية فتحدث عن أسماء الله تعالى وصفاته واشتقاقها ودلالاتها، وأدخل فرعا سماه إسم النوع قال فيه في باب الكلام على النوع: « سَمَى الْأَوَائِلَ النَّوْعَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ إِسْمًا آخَرَ وَهُوَ "الصُّورَةُ" وَأَرَى هَذَا إِتْبَاعًا لِللُّغَةِ الْيُونَانِ، فَرُبَّمَا كَانَ عَلَى النَّوْعِ الْمَطْلُوقِ، وَلَا مَعْنَى لِأَنَّ نَشْتِغَلَ بِهَذَا إِذْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ. وَإِنَّمَا نَقْصِدُ بِالنَّوْعِ إِلَى أَنْ نَسْمِيَ بِهِ كُلَّ جَمَاعَةٍ مُتَّفَقَةٍ فِي حَدِّهَا أَوْ رَسْمِهَا مُخْتَلَفَةٍ بِأَشْخَاصِهَا فَقَطْ، كَقَوْلِكَ: الْمَلَائِكَةُ، وَالنَّاسُ، وَالْجِنُّ، وَالنُّجُومُ، وَالنَّخْلُ، وَالتَّفَاحُ، وَالْخَيْلُ، وَالْجِرَادُ، وَالسَّوَادُ، وَالْبِياضُ، وَالْقِيَامُ، وَالْقَعُودُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَالنَّوْعُ وَاقِعٌ تَحْتَ الْجِنْسِ لِأَنَّهُ بَعْضُهُ، وَقَدْ يَجْمَعُ الْجِنْسُ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً يَقَعُ إِسْمُهُ - نَعْنِي إِسْمَ الْجِنْسِ - عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا، وَيُوجَدُ حُدُّهُ فِي جَمِيعِهَا وَتَتَبَايَنُ هِيَ تَحْتَهُ بِصِفَاتٍ يَخْتَصُّ بِهَا كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا دُونَ الْآخَرِ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تَقُولُ: حَيٌّ فَيَقَعُ تَحْتَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ النَّاسُ، وَالْخَيْلُ، وَالْبِغَالُ، وَالْأَسَدُ، وَسَائِرُ الْحَيَوَانَاتِ، فَإِذَا حَدَّدْتَ الْحَيَّ فَقُلْتَ: هُوَ الْحَسَّاسُ الْمُتَحَرِّكُ بِإِرَادَةٍ كَانَ هَذَا الْحَدُّ أَيْضًا جَامِعًا لِكُلِّ مَا ذَكَرْنَا يَخْتَصُّ بِصِفَةِ دُونَ سَائِرِهَا كَالنَّطْقِ وَالصَّهِيلِ وَالشَّحِيحِ وَالزَّئِيرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ،

فالحى جنس وكل ما ذكرنا أنواع تحته أي أن الحى يجمعها وهي أبعاضه وهي مختلفة تحته كما قدمنا»¹

وإنما أوردت هذا النص لأبين سعة الفكر عند ابن حزم فإننا نجده يعدد حدود الأشياء وتعريفها، فقد توسع في تعريف الاسم وجاء بأنواع وأقسام استقاها من طبيعة ثقافته التي تمجد العقل وتدفعه إلى التأمل، ولذلك نجده كثيرا ما يخالف الأوائل مهما كانت مكانتهم العلمية ولا ينقاد لآرائهم إن لم تكن مما يرتضيه حكمه العقلي.

إن كلامه عن النوع الذي يندرج تحته مجموعة من الأشياء تشترك في الصفة الأعم وتختلف في جزئيات يطابق ما أصبح يعرف اليوم في عالم اللسانيات بالحقول الدلالية، فحقل الانسان يندرج تحته كل ما له صلة بهذا المخلوق وحقل الحيوان يضم جميع ما له صلة بهذا المخلوق والأمر في حقل الألوان كذلك، وهذا يطابق قوله: « فالحى جنس وكل ما ذكرنا أنواع تحته أي أن الحى يجمعها وهي أبعاضه وهي مختلفة تحته كما قدمنا»² وقال في مقام آخر: « وتحت العلم أنواع كثيرة هو لها جنس جامع كالفقه والطب والفلسفة والنحو والشعر وغير ذلك وكل واحد من هذا يسمّى علما»³

ب- الفعل صوت موضوع:

وفي حديثه عن القسم الثاني من الكلمة الذي هو الفعل قال ابن حزم: « وقال الأوائل: إنه يدل على زمان مقيم، لأنك تقول صحَّ يصحُّ وهذه الكلمة صوت موضوع باتفاق أيضاً على ما قدمنا في الاسم لا يدل بعض أجزائها على معناها إلا أنها تدل على زمان مقيم كما ذكرنا».

¹ - ابن حزم، الرسائل ، 115/4.

² - ابن حزم، الرسائل 115 /4 ..

³ - نفسه 141 /4.

لقد عرّف ابن حزم الفعل أنه صوت صادر عن مرسل يراد به معنى ندرکه بالعقل يتمثل في حدث نحو: ضَرَبَ - وَقَفَ - سَارَ - حَطَبَ، ويرتبط هذا الحدث بزمان حصل فيه ذلك المعنى قد يكون دالا على الماضي فهو زمن فات أو انه وقد يدل على المستقبل فهو إما في حالة الحدوث أو أنه سيحدث لاحقا ويدخل فيه طلب الحدوث كما في قولنا: إفهم - أخرج - إجلس. وفي هذه الحالة فالزمن مقصور على المستقبل لأن الخروج أو الجلوس لا يحدث إلا بعد الإنتهاء من الكلام.

وللفعل صيغ صرفية تخضع لأداء صوتي (تنغيمي) تحدث عنها النحاة فللماضي (فَعَلَ) نحو: كتب - درس - بعث، وللمضارع (يَفْعُلُ) نحو: يكتب ويدرس وبيعت، وللمستقبل (إفعل) نحو: أكتب - إجلس - إبعث، وبذلك يستمد الفعل دلالاته الزمنية من هذه الصيغ وفق أصواتها التنغيمية.

4- تفاعل الأصوات:

قد تتفاعل الأصوات مع بعضها البعض نتيجة التآليف ويتجلى هذا التفاعل في تأثير الأصوات المتجاورة بعضها ببعض أثناء التآليف الصوتي فقد يحدث في الكلام أن تجتمع أصوات الانسجام فيما بينها، بحيث يشعر المتكلم بثقلها على لسانه أو يجد عسرا في تحقيقها فيهرب من ذلك بتبديل بعض الأصوات ببعض أو بتعديل بعض صفات الأصوات لتوفير الانسجام، وقد توصلّ الدارسون إلى تحديد قوانين تضبط ظاهرة التغيير الصوتي هي:

1- قانون المماثلة ويسميه البعض التماثل، وفحواه أن الأصوات اللغوية تتأثر بعضها ببعض عند النطق بها في الكلمات والجمل، فتغير مخارج بعض الأصوات أو صفاتها لكي تتفق في المخرج أو في صفة مع الأصوات المحيطة بها في الكلام فيحدث من ذلك نوع من التوافق والانسجام بين

الأصوات المتنافرة في المخارج أو في الصفات، وذلك من نحو قولنا:
إِصْتَبِعَ ← إِصْطَبِعَ، إِضْتَجِعَ ← إِضْطَجِعَ...

2- قانون المخالفة: وهو ضد التماثل، فهو يعتمد إلى صوتين متماثلين تماما في كلمة من الكلمات فيغير أحدهما إلى صوت آخر وهو قليل إذا ما قيس بالمماثلة « والسبب في المخالفة من الناحية الصوتية، هو أن الصوتين المتماثلين يحتاجان إلى جهد عضلي في النطق بهما في كلمة واحدة ولتيسير هذا المجهود العضلي، يُقَلَّبُ أحد الصوتين صوتا آخر»¹
وإنما أوردنا الكلام هنا عن قانوني المماثلة والمخالفة لأنهما يمسان التغيير الصوتي الذي أشار إليه ابن حزم في معرض حديثه عن طبيعة اللغة وعلاقتها بالاستعمال اللهجي في بلاد الأندلس والمغرب.

5- التعريف بالتغيرات الصوتية:

المقصود بالتغيرات الصوتية عند القدماء والمحدثين ما يلحق الكلمة أو التركيب من زيادة، وحذف، وإبدال، وإدغام، وإعلال، وإمالة وذلك بغية تسهيل اللفظ وتحقيق الخفة، وبذلك تحدث الخليل (ت175هـ) في قضية زيادة همزة الوصل للنطق بالساكن في كلمة إِسْحَنَكَكَ - واقشَعَرَ فقال إنما أدخلت هذه الألفات لتكون عمادا وسلما للسان إلى حرف البناء²، والأمر نفسه أشار إليه سيبويه (ت180هـ) فجعل ألف الوصل زائدة لأنه يصعب الابتداء بساكن³.

ورأى ابن السراج (ت316هـ) أن الزيادة، والإبدال والحذف، والتغير بحركة وسكون والإدغام من التصريف⁴.

¹ - د. علي حسن مزبان، علم الأصوات بين القدماء والمحدثين، دار شموع الثقافة، الزاوية، ليبيا، ط1، 2003، ص126.

² - الخليل، العين، 11/1.

³ - سيبويه، الكتاب، 145/4.

⁴ - ابن السراج، الموجز في النحو، تحقيق مصطفى الشويمي، ص143.

وقد أكثر ابن جنّي (ت394هـ) الحديث عن التغيرات الصوتية وخصص لذلك أبواباً عدة من ذلك (قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف)، و (باب محل الحركات من الحروف أمعها أم قبلها أم بعدها)، و(باب في هجوم الحركات على الحركات)¹ وقد قسم الدارسون هذه التغيرات إلى قسمين:

1- التَغْيِرَات التَّارِيخِيَّة، وتبحث في اللغة الأم، والتحول الذي يصيب أصواته خلال الحقب الزمانية الطويلة، فقد يتحول صوت إلى صوت آخر بفعل التقارب أو التشابه أو العسر من ذلك تغير صوت السين من السامية إلى الشين في اللغة الآرامية²، وصوت (ق) القاف إلى همزة (أ) عند سكان العديد من المدن العربية في القاهرة بمصر وفي الشام بسوريا وتلمسان بالجزائر، ومن ذلك نطق صوت الغين (غ) إلى قاف (ق) في الأغواط وأفلو بالجزائر، وصوت القاف (ق) إلى كاف لدى سكان مدينة جيجل والغزوات بالجزائر، وإن كان البعض يفسر هذا التغيير بالسلوك اللهجي إلا أنه يرتبط بمعطيات تاريخية في المجال الثقافي واللغوي عرفت هذه الجهات، ولعل هذا القسم هو الذي سيأخذ حيزاً كبيراً في تحليلنا للتغيرات الصوتية التي أشار إليها ابن حزم.

2- التَغْيِرَات التَّرْكِيْبِيَّة: وهي التغيرات التي تحدث في التراكيب اللغوية حيث تتغير العديد من الأصوات عن طريق الإبدال أو الحذف أو القلب أو الإدغام، وقد قنن لها العلماء ذلك أنها تحدث في مواطن معلومة وقد تعود إلى أصولها في تراكيب أخرى.

¹ ابن جنّي، الخصائص، 88/2، 321/2، 136/3.

² د. رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1404هـ، ص17.

6- العوامل المؤثرة في التغيرات الصوتية:

هناك عوامل داخلية تتمثل غالباً في الجنوح نحو الخفة وتوخي الإقتصاد اللغوي وتتجلى مظاهر هذا العامل في القلب والإبدال مثلاً مضارع قال يَقُول أصلها قال يَقُول وفي ذلك ثقل فقاموا بنقل ضمة الواو إلى القاف، فقالوا يَقُولُ. وقالوا: "يَقُول" تجنباً للثقل، والأمر نفسه في حال التغيير بالزيادة فالفعل خَرَجَ عند زيادة همزة التعدية في أوله يصبح صوت الخاء ساكناً "أُخْرَجَ"، فهاته العوامل داخلية تخص طبيعة اللغة العربية التي تتمتع بقابلية التطور.

- العوامل الخارجية:

تتعدد العوامل الخارجية وتتنوع فبالإضافة إلى الاحتكاك مع اللغات الأجنبية واللهجات المحلية التي يمكنها أن تؤثر في مستعملي اللغة وبذلك يحدث التغيير إما بالزيادة أو النقصان.

- العادات النطقية:

تحدّث الدارسون عن العادات النطقية التي كانت تتميز بها كل بيئة، وتختص بها جماعة لغوية عن جماعة أخرى، وأطلقوا عليها أحياناً "لغة" وأحياناً أخرى مصطلح "لهجة"، وبخروج اللغة العربية من شبه الجزيرة خضعت لهذه العادات ولم تستطع التحرر منها مما أدى إلى شيوع العديد من الأصوات وتداولها، فحدث التغيير إما بالزيادة أو الحذف، وحدث كذلك الإبدال للعديد من الأصوات. وقد تقطن علماء التّجويد لهذه الظاهرة فدعوا إلى تنقيف الألسن وترويضها وأكدوا ذلك كثيراً، وسموا ممارسة هذا التغيير في القراءة بالحن الخفيّ، فقد قالوا: «إنّ اللحن لحنان لحن جلي وهو رفع المنصوب أو نصب المرفوع أو خفض المنصوب أو المرفوع، ولحن خفي وهو لحن لا يعرفه إلا المقرئ المتقن للعربية، الضابط

لها، الذي تلقن العربية من منابتها الأصلية وعن مشايخها الكبار، وحدقها جيداً، والذي يعطي لكل صوت حقه غير زائد فيه ولا ناقص منه، ولا مغير له، المتجنب الإفراط في الفتحات والضمات والكسرات والهمزات وتشديد المشدّدات، وتخفيف المخففات، وتسكين المسكّنات، وتطنين النونات وتغليظ الراءات وتكريرها، وتسمين اللامات ونشير بها الغنة»¹.

وقد حثّ علماء التجويد إلى ضرورة التحكم في أصوات القراءة من ذلك قول ابن الجزري (ت833هـ) «أول ما يجب على مرید اتقان قراءة القرآن تصحيح إخراج كل حرف من مخرجه المختص به، يُعملُ لسانه وفمه بالرياضة في ذلك إعمالاً يصير له ذلك طبعاً وسليقة، فكل حرف شارك غيره في مخرج فإنه لا يمتاز عن مشاركته إلا بالصفات... فإذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حدته موفّ حقه فليُعمل نفسه بإحكامه حالة التركيب لا ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الأفراد وذلك ظاهر فكم ممن يحسن الحروف مفردة ولا يحسنها مركبة بحسب ما يجاورها من مجانس ومقارب، وقوي وضعيف، ومفخم ومرقق، فيجذب القويّ الضعيف، ويغلب المفخم المرقق، فيصعب على اللسان النطق بذلك على حقه إلا الرياضة الشديدة حالة التركيب، فمن أحكم صحة اللفظ حالة التركيب حصل حقيقة التجويد بالإتقان والتدريب»².

وكذلك فعل العالم مكي بن أبي طالب فقال: «وكل ما ذكرته من هذه الحروف لم أجد الطلبة تزل بهم السنتهم إلى ما نبهت عليه، وتميل بهم طبائعهم على الخطأ فيما حذرت منه، فبكثره تتبعي لألفاظ الطلبة بالمشرق والمغرب وقفت على

¹ - ينظر: أبو الحسن علي بن جعفر السعدي، التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، تحقيق د. غانم قدور الحمد، دار عمان، الأردن، ط1، 2000م، ص27، 28

² - ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1/ 214، 215.

ما حذرت منه ووصيت به من هذه الألفاظ كلها وأنت تجد ذلك من نفسك وطبعك»¹.

وإن الدارس لهذه الظاهرة في اللغة العربية يجدها وقد استقبل أمرها لذلك نجد العديد من الألفاظ وقد تعرضت للإبدال في حروفها بفعل هذا السلوك من ذلك قولهم: الرما عوض الربا، والناث عوض الناس، ومطّ عوض مدّ، ونشصّ عوض نشزّ، ومدّهة عوض مدحة، والهشاشة عوض البشاشة، والغستات عوض الفسطاط².

7- مظاهر التغييرات الصوتية عند ابن حزم:

إن الدارس لجهود ابن حزم الأندلسي في قضية التغييرات الصوتية لا يعثر على دراسات وتحاليل لغوية تخص أسباب وطبيعة هذه التغييرات ولا لعواملها وإنما يجد ملاحظات شدد انتباهه في بيئته الأندلسية، وهو العالم والفقير واللغوي ورجل السياسة الذي ينتبه أكثر من غيره لما يخالف المؤلف في المجتمع. فقد اكتسب ابن حزم لغة فصيحة ووقف على أسرار اللغة العربية وتشبع بالفصحى لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وتمرس في الأداء الصوتي والإستعمال الكتابي لذلك نجده يعرض في مؤلفاته بعض الوقفات التي كان إما مستغربا لها أو معجبا بها.

لقد عرض ابن حزم تحليلا وافيا في قضية نشأة اللغة وتحدث بإسهاب عن تعدد اللغات، وما أصاب اللغة الأم من تغييرات جعلها تتفرع إلى لغات - كنا قد شرحنا ذلك سابقا في أمر نشأة اللغة - ثم استعرض ما أصاب العربية من تغيير بفعل إتساع رقعة استعمالها وخروجها من شبه الجزيرة العربية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فقال: « والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير لغة

¹ - مكي بن أبي طالب (ت437هـ) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دمشق، 1984، ص144.

² - فاطمة أبو الغوط، دواعي الإبدال في العربية (بحث).

واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش¹ كالذي يحدث من الأندلسي، ومن الخرساني إذا رام نغمتها، ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة، وهكذا في كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى يتبدل لغتها تبديلاً لا يخفى على من تأمله. ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولا فرق فجدهم يقولون: العنب العيّن، وفي السوط أسطوط، وفي ثلاثة دنانير تُلْدَد. وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال السّجرة، وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول مهمدًا إذا أراد أن يقول محمدًا. ومثل هذا كثير، فمن تدبّر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن إختلافهما إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان، وإختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل»².

إن هذا النص يمثل قيمة علمية كبيرة فإن ابن حزم ينتهج المنهج الوصفي القائم على الملاحظة والتدبر والاستنتاج، فقد أهله علمه وساعده عقله الراجح على القيام بعملية وصف للغة بيئته التي كانت تجمع العربي المفتخر بفصاحته والذي يرى في عربيته كمال رجولته، والأندلسي الذي يرغب في تعلم العربية وإتيانها في العبادات والتعلم والمجالس فتعيقه عجمته، والبربري الذي لم يتحرر بعد من رطانتة، والجليقي الذي يحتفظ لسانه بطباع لهجته، فهذا الخليط من المجتمع يتحدث العربية وكل يروم نغمتها ولكن الألسن لا تطاوعها جميع الأصوات، إن ابن حزم وهو يلاحظ الاستعمال اللغوي في بيئته الأندلسية ويصف ما حدث للعربية من تبديل لبعض أصواتها توصل إلى نتيجة حسب رأيه مفادها أن اللغة قد تنفرع إلى لغات عديدة بفعل هذا التبغير الذي يمسه عبر الحقب الزمانية ولعل

¹ - الجرش: الحك بقصد الاحتكاك الذي يحدث بين اللغات.

² - ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، 32/1.

ذلك ما حدث للغة الأم التي كانت تجمع العربية والعبرانية والسريانية، فإنما هذه اللغات نشأت في بيئة واحدة ثم تفرعت بفعل عوامل الإستعمال والممارسة لدى مستعمليها الأصليين عبر الأجيال والوافدين إلى بيئتها والداخلين في ملتها، وهو طرح فيه من الوجاهة والموضوعية ما يجعلنا نقدر في ابن حزم مقدرته على التحليل وشجاعته في خوض غمار البحث والأداء بما أوصله إليه عقله.

- التغيير بالإبدال:

حدث التبدّل وطراً على الألسن تبديل صوت بصوت من ذلك إجتماع صوتي الشين والجيم في كلمة شجرة، فالشين والجيم من مخرج واحد فهما صوتان شجريان ولذلك يصعب اتیانهما حتى على العربي، وابن جنّي يرى أن الصوتين إذا تجاوزا وكانا من مخرج واحد سيؤدي تجاوزهما إلى ثقل في النطق ولذا فإبدال صوت بصوت آخر قريب منه في المخرج والصفات يؤدي إلى تسهيل اللفظ، وهذا ما حدث في كلمة شجرة فالبربري المتعرب نطقها سجرة حيث لجأ إلى ما يعرف بقانون المخالفة فأبدل الشين سينا ذلك أن صوتي الشين والجيم من مخرج واحد فهما من الأصوات الغارية، فالشين مهموس احتكاكي مرقق فموي ينطق برفع مقدمة اللسان إتجاه الغار، ويرفع الطبق ليسدّ المجرى الأنفي بالتصاقه بالجدار الخلفي للحلق مع عدم اهتزاز الأوتار الصوتية فيمر الهواء في الفراغ الضيق بين مقدمة اللسان والغار مسبباً نوعاً من الإحتكاك، والجيم صوت مجهور متوسط مرقق مزدوج يتم نطقه بأن ترتفع مقدمة اللسان في إتجاه الغار فيلتصق به، وبذلك يحجز وراءه الهواء الخارج من الرئتين، ثم ينفصل العضوان فيحتك الهواء الخارج بالعضوين المتباعدين¹، وقد ذكر القدماء أن الجيم صوت شديد عده سيبويه من الأصوات الشجرية مع الشين والياء وتابعه على هذا ابن جنّي أما عند المحدثين فهي صوت مجهور متوسط مزدوج (أي بين الشدة والرخاوة)، وعدّ الخليل الجيم

¹ - د. علي حسن مزيان، علم الأصوات بين القدماء والمحدثين، ص 65.

والشين والضاد من مخرج واحد فقال: « ثم الجيم والشين والضاد في حيز واحد»¹.

وإبدال الشين سينا في كلمة شجرة يحقق خفة ويبعث على الراحة في النطق فالسين من الأصوات الأسلية مخرجه من طرف اللسان وفوق الثنايا السفلى ونسبت إلى أسلة اللسان وهو ما دق منه.

ونجد هذا الإبدال بكثرة في لهجتنا الحالية في الجزائر فالكثير ينطق مقولة: "جيش التحرير": "زيش التحرير" بإبدال الجيم زايا والزاي أخت السين في المخرج، ويقول آخرون السّجاعة عوض الشجاعة بإبدال الشين سينا، ويقول السمش عوض الشّمس...، وإنما ذلك من باب إبعاد الأصوات عن بعضها البعض مخرجا حتى تتحقق الخفة والسهولة في النطق، وهذا ليس معناه أن في جمع الشين والجيم مخالفة ولكنها ألسن غير العرب وجدت في الأمر ثقلا، وقد ألفت في لغاتها أصواتا أخرى.

- التغيير بالزيادة:

ثم يورد ابن حزم عينة أخرى في إبدال العامة صوتا بصوت فيقول: « ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلا وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى لا فرق فنجدهم يقولون في العنب العَيْنب»² فالتغيير هنا حدث بالزيادة فتم زيادة الياء الساكنة بين حركتين كسرة العين وفتحة النون، وفي تتابع الحركات مشقة لذلك جيء بالساكن لتحقيق الراحة التّنفسية فقالوا "عَيْنب"، وهذا الاستعمال كثير في لغة العرب فمنهم من يحذف الياء كقول بعضهم "عيب عليك" عوض "عَيْبُ عليك" و"الشَيْبُ عوض الشَّيبُ"، و"الزَيْتُ عوض الزَّيْتُ" و"الطَّيرُ عوض الطَّيرُ".

¹ - الخليل، العين 1/ 64.

² - ابن حزم، الأحكام في أصول الأحكام، 32/1.

ويتطرق أيضا إلى عجمة بعض سكان الأندلس فقال: « وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول مهمداً إذا أراد أن يقول محمداً»¹ فصوت الحاء غير موجود في العديد من اللغات اللاتينية والكثير من سكان أوربا لا يحققه نطقاً لذلك كانوا إذا نطقوا محمداً قالوا مهمداً أو "مومداً" كما سمعناه عند الفرنسيين مثلاً، فبحة الحاء متعبة لدى كثير من سكان الأندلس لذلك أبدلوها هاء من باب الصعوبة في النطق.

إلا أن هذا النطق إن عولج على المستوى البلاغي فقد يعد من العيوب النطقية، ذلك أن نيل صفة الفصاحة تفرض أن يكون متعلم العربية من غير العرب سالماً في آلة النطق، وبالتالي يكون بليغاً، حتى يتسنى للسامع معرفة كنه ما يقصده الناطق من نطقه.

وعدَّ العرب الأثغ والتمتام بغير الفصيحين لنقصان آلتها عن إقامة أصوات العربية، وسمي زياد بالأعجم فقيل "زياد الأعجم" لأنه كان لا يقيم أصوات العربية فكان يعبر عن الحمار: الهمار² فعد ذلك عيباً، إلا أن ابن حزم اكتفى بطرح الظاهرة لأن مقام الحديث كان يدور في تأثير اللغات في بعضها البعض، وصعوبة التحرر من اللغة الأولى بالنسبة للبرابرة والأوربيين على عهده، والذين كانوا يسكنون في بيئة بعيدة عن البيئة العربية التي تحقق أصوات العربية تركيباً كما تحققها مفردة.

إن ابن حزم لم يستنكر هذا النطق بالرغم من أنه فطن له بفعل الذوق الذي شب عليه وإنما أراده شاهداً على التداخل اللغوي بين العربية والعبرية والسريانية، وما يمكن أن يحدث لأي تداخل لغوي في أي بيئة إجتماعية.

¹ نفسه، 32/1.

² - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 16.

ثم يقول: « وفي السَّوْطِ أسْطُوطٌ، وفي ثلاثة دنانير ثلثًا¹»

إن التغيير الحادث في الكلمتين هو تغيير لهجي فوضوي لا ضابط له ولا يدخل فيما قَنَّنَهُ علماء العربية وإنما اللسان الأندلسي المحلي لم يطاوعه الإدغام في كلمة السَّوْطِ وتوالي هذه الأصوات فنطقها "أسْطُوطٌ" حيث بدأ الكلمة بمتحرك وهي الهمزة وسكن الصوت الثاني نازعا عنه الإدغام وأضاف طاء ثانية، ويدخل هذا في العادة الصوتية المحلية.

ونجد أهل الأندلس ينحتون عبارة ثلاثة دنانير بقولهم ثلثًا وهو نحت يخالف ما شاع عند العرب كقولهم عبشمي من عبد شمس، وبسمل من بسم الله، وحوقل من لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنما دفعهم إلى ذلك التداخل اللغوي عندهم وعسر تحقيق النطق العربي.

ولا يجد ابن حزم تعليلا لذلك اللهم إلا تداخل اللغات وتأثرها المتبادل فيقول: « ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد أن يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة، وهكذا في كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى يتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله². »

إن الإبدال الذي تحدث عنه ابن حزم هو سلوك لغوي استعان به الناطقون في بلاد الأندلس لتحقيق النطق الموافق لهجتهم ومحاولة منهم تجنب المركبات الصوتية المجهددة، وللفرار من الثقل وعسر النطق، وإن مثل هذه الحالات في الإبدال هي حالات سماعية تحدث عنها النحاة كثيرا فابن جنِّي يعلل إبدال السين تاء في ست وأصلها سدسة لانعدام التجانس الصوتي وطلب التخفيف، فالسين والـدال متقاربان في المخرج ومتباعدان في الصيغة، يقول: « ومن ذلك قولهم ست أصلها سدس فقربوا السين من الدال بأن قلبوها تاء فصارت سدت فهذا تقريب لغير

¹- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، 32/1.

²- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، 31/1.

إدغام الآن فقالوا ست»¹، وكما هو الحال في جميع اللهجات التي جاءت بعد اللغة الفصحى فقد عرفت العربية في الأندلس على عهد ابن حزم تأثراً باللهجات المحلية وبقايا اللغة الرومانية فقد كان يصعب على العديد من الناطقين تحقيق بعض الأصوات العربية فصوت الحاء الموجود في العربية كانوا ينطقونه هاءً فاسم محمد كما أسلفنا الذكر كان ينطق مهمداء، ويقولون في الحوت الهوت وهذا تأثراً بالرصيد اللهجي في الأندلس، كما كانوا يحققون السكون في بداية الكلمة فيقولون في عجل: عَجَلْ - في أبيض: بَيْضْ - وأحمر: حَمَرْ وكانوا يدغمون حرف العلة الياء وسط الكلمة فيقولون في كَيْفَ الحال: كِيفَ الحال - وفي لَيْسَ: لَيْسْ.

ومجمل القول: إن ابن حزم بهذه الالتفاتة الطيبة كان قد وضع الأسس الأولى لأطلس لهجي في بلاد الأندلس فقد سمى أماكن معلومة فذكر قرطبة، وفحص البلوط، وإشبيلية، وعدد أعرافاً بشرية فذكر الأندلسي، والخرساني، والبربري، والعربي والجويلقي والرومي كما سمى قبائل عربية فذكر مَضر - وقريش وربيعة، وتميم، وتناول بالحديث المسافات بين المناطق فقال: « وهي على ليلة واحدة من قرطبة» وكل هذه العناصر تدخل ضمن ما يسمّى اليوم بالجغرافية اللسانية.²

إن الدارس لهذه العينات يسجل لابن حزم تقدمه في طرح قضايا صوتية تنضاف إلى مجهودات العرب القدامى وتعكس القيمة العلمية لاجتهاد العلماء الأندلسيين في الحديث عن بيئاتهم وعن علوم عصرهم، وبذلك كان ابن حزم من الذين أسسوا للنهضة الفكرية والعلمية في الأندلس التي أبهرت العالم، ونشير بأن المستشرقة الألمانية زيغريد هونكي كانت قد أشادت كثيراً بفضل العلماء العرب

¹ - ابن جني، الخصائص 145/2.

² ينظر: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، 1/ 32، 33، 34، 35.

الأندلسيين وخصت غيرها مرة ابن حزم بالذكر في كتابها ضمن جهوده الفلسفية والفكرية واللغوية والدينية.¹

¹ ينظر: زيغريد هونكي، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، لبنان، ط3، 1970م.

الفصل الثالث

جهود ابن حزم الصوتية في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة

وقف الخليفة الموحد المنصور على قبر ابن حزم يوماً وقال: «عجباً لمثل هذا الموضع يخرج منه ذلك العالم» ثم اتفت إلى من بجواره قائلاً: «جميع العلماء عيال على ابن حزم»¹.

¹ - محمد طه الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية، ص09.

الفصل الثالث: جهود ابن حزم الصوتية في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة

1- تمهيد

2- جهاز النطق كما حدده ابن حزم ووصفه المحدثون

أ- ترتيب ابن حزم لأعضاء النطق

ب- ترتيب المحدثين لأعضاء النطق

ج- طبيعة جهاز النطق عند المحدثين

د- وظيفة أعضاء النطق بين ابن حزم والمحدثين

3- خلاصة المقارنة بين ما جاء به ابن حزم وما قدمه المحدثون

4- مفهوم الصوت بين ابن حزم وعلماء الأصوات المحدثين

أ- تمهيد

ب- الصوت السمعي عند ابن حزم

ج- الصوت السمعي عند علماء الأصوات المحدثين

د- الكلمة صوت عند ابن حزم

هـ- مفهوم الكلمة عند علماء الأندلس القدامى

و- الكلمة عند علماء الأصوات المحدثين

ز- التنظيم الفونيمي في اللغة العربية بين ابن حزم والمحدثين

5- قضية نشأة اللغة بين ابن حزم والمحدثين

أ- عند ابن حزم

ب- عند المحدثين

6- خلاصة الفصل.

1- تمهيد:

لقد أحاط ابن حزم بأصول المعرفة عند غيره من المفكرين الذين سبقوه واهتم كثيراً بعلوم عصره وعایش الأحداث المطروحة فاتخذ لنفسه منهجاً يقدر فيه العقل، جرّه إلى إتباع المذهب الظاهري الذي بدأه داود بن علي الأصفهاني بالعراق فتعامل مع النص كما هو وواجه الوقائع مهما تعددت وتعددت، وقد جرت به ظاهريته الفقهية إلى الاهتمام بالجوانب اللغوية فجاءت مؤلفاته حافلة بمجهودات في المجال المعجمي والنحوي والبلاغي والصرفي.

وأما جهوده الصوتية التي نحن بصدد تجليتها فقد ارتبطت بالمادة اللغوية في عمومها ولذلك جاءت محدودة كما بينت سابقاً، ولم يخرج فيها عن إجتهدات سابقيه من المشاركة والمغاربة.

إعتمد ابن حزم في حديثه عن الأصوات إلى ما خلص إليه علماء العربية وإلى مشاهداته للواقع اللغوي في بلاد الأندلس وإلى حسّه العقلي، فتحدث عن الأصوات من جوانبها الوظيفية وميز بين ما يحقق فائدة وما لا فائدة منه، ثم كشف عن جهازي التصويت والسّمع دون أن يوغل في الوصف والتعمق لأن مدار الأمر عنده هو الجوانب الوظيفية لأعضاء هذين الجهازين.

والملاحظ عند كل باحث في جهود ابن حزم الصوتية يدرك أن الرجل قد إستوعب الكثير من خصائص الصوت اللغوي ودرس مكوناته ولم يقتصر على ما تلقاه، وإذا كان لم يدخل في التفاصيل والشروحات فلأن ابن حزم كان يكتفي بما يخدم أفكاره الفلسفية ومذهبه الفقهي وإتجاهه السياسي وقناعاته الثقافية.

لم يقدم ابن حزم دراسات معمقة في المجال الصوتي ولم يجنح إلى تفاصيل واضحة، غير أن المعلومات المتناثرة في مؤلفاته تكشف مدى تنظيم وترتيب

المعطيات الصوتية وفق طبائعها العلمية، وقد أبدى قدرة فائقة في إحاطته بعناصر جهاز التصويت.

وسأحاول في هذا الفصل القيام بموازنة قصد إبراز أوجه التشابه بين الدراسات الصوتية الحديثة ومجهودات ابن حزم.

2- جهاز التصويت كما حدده ابن حزم ووصفه المحدثون:

جمع ابن حزم في حديثه عن إنشاء الأصوات وإيصالها إلى المتلقي بين جهازي التصويت والسَّمع، ولم يلجأ إلى الشرح والتحليل، وإنما ذكر ذلك إجمالاً فجاء ترتيبه لأعضاء جهاز التصويت تصاعدياً بدءاً بالصدر ثم الحلق فأنابيب الرئة والحنك ثم اللسان فالشفنتين وأخيراً الأسنان.

ولا نعتقد بأن لهذا الترتيب ما يبرره علمياً فأعضاء النطق - كما قال ابن حزم في موطن آخر - لا يستقل كل عضو منها بصوت وإنما تتداخل وظائفها وتتشترك في صناعة الأصوات، ويتضح ذلك أكثر في قوله: «وهيأ لها الهواء المندفع بقرع اللسان إلى صُمع الأذان»¹ فقد أدرك أهمية وظيفة هذا العضو في صناعة الأصوات وإتصاله ببقية الأعضاء وهذا ما أكدته الدراسات الصوتية الحديثة التي ذهبت إلى أن تنشئة الأصوات اللغوية مردها أساساً إلى اللسان.

أ- ترتيب ابن حزم لأعضاء النطق:

رتب ابن حزم أعضاء جهاز النطق بدون شرح ولا ذكر لحدها ولم يشر إلى أدوارها، فجاءت عنده كالاتي:

1- الصدر

2- الحلق

3- أنابيب الرئة

¹ الرسائل 4/ 96.

4- الحنك

5- اللسان

6- الشفتان

7- الأسنان

ب- ترتيب المحدثين لأعضاء النطق:

1- الشفتان

2- الأسنان

3- الحنك

4- اللسان

5- الحلق

6- المزمار

7- الحنجرة

8- الأوتار الصوتية

9- التجويف الأنفي

10- الرنتان.

ج- طبيعة جهاز التصويت عند المحدثين:

لم يخرج العلماء المحدثون كثيرا على ما أورده العلماء العرب القدماء ومنهم ابن حزم عن تحديد أعضاء جهاز التصويت، فإذا كان ابن حزم قد اكتفى بالأعضاء الرئيسية الفاعلة دون التطرق إلى مزيد من الشرح في مجال أداء وظائفها المتعددة البيولوجية والنطقية، فقد قسم العلماء المحدثون أعضاء النطق إلى نوعين:

أولاً: الأعضاء الثابتة وهي: الأسنان العليا واللثة والغار (الحنك الصلب) والجدار الخفي للحلق.

ثانياً: الأعضاء المتحركة وهي: الشفتان واللسان والطبق واللهاة ولسان المزمار (يتحرك بتحريك اللسان) والحنجرة والرئتان والقصبية الهوائية. ويبقى أن نذكر أن العلماء المحدثين سموا هذه الأعضاء بأعضاء النطق نظراً لوظيفتها الظاهرة، فهذه الأعضاء وظائف بيولوجية متعددة وهي ذات أهمية قصوى لبقاء الإنسان على قيد الحياة.

د- وظيفة أعضاء النطق في إحداث الصوت بين ابن حزم والمحدثين:

شرح المحدثون دور أعضاء النطق في إحداث الأصوات اللغوية وهذا ما لم يتطرق إليه ابن حزم ولعله كان يدرك أن ذلك واقع بالضرورة وفيما يأتي دور كل عضو من الأعضاء.

1- الشفتان: تتحركان بحرية في كل اتجاه وتتخذان أوضاعاً مختلفة عند النطق بالأصوات، فتتطبقان إنطباقاً تاماً يمنع مرور الهواء وتنفرجان، فيندفع من ثمة الهواء منفجراً محدثاً صوتاً انفجارياً وتستدير كما يحدث في الضمة وتنفرجان كما يحدث في الفتحة. وتختلف عادات البشر في استغلال حركة الشفتين والانتفاع بها فمن الشعوب من تتميز عادات النطق لديهم بكثرة الحركة ومنهم من يقصد في ذلك.¹

2- الأسنان: خصها ابن حزم بالذكر دون إبراز لأنواعها وأقسامها، وفصل العلم الحديث صفاتها وطبائعها وعدد وظائفها في إنتاج الأصوات وهي من الأعضاء الثابتة غير أن الفك الأسفل يتحرك، ولا تنتج الأسنان الأصوات بمفردها وإنما تشترك مع اللسان أو الشفة السفلى.²

¹ رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث، القاهرة، 1985، ص23.

² حسام البيهناوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ص 24.

3- الحنك: وهو المقابل للسان من أعلى الفم ولا يقوم سقف الحنك بإنتاج الأصوات بمفرده، وإنما بالاشتراك مع اللسان وينقسم إلى أربعة أقسام: اللثة والغار والطبق وهو سقف الحنك الرخو واللهاة وهي عضو متحرك تنتج الأصوات بمساعدة مؤخرة اللسان.

4- اللسان: رتبته ابن حزم في المرتبة الخامسة شأنه في ذلك شأن العلماء المحدثين وذلك من باب التدرج نحو الأبعد وهو من أهم أعضاء النطق باتفاق القدماء والمحدثين ويتكون من عدد كبير من العضلات التي تمكنه من الحركة والامتداد والانكماش والتلوي إلى الأعلى أو الخلف، وقد مكنته هذه الأوضاع من الإتصال بأية نقطة من الفم، قسمه العلماء المحدثون إلى ثلاثة أجزاء:

أ- مقدمة اللسان.

ب- وسط اللسان.

ج- مؤخرة اللسان.

5- الحلق: ذكره ابن حزم مباشرة بعد الصدر في قوله: «مكّن الحكيم القادر لها المخارج من الصدر والحلق...»¹ فعمق الحلق مقارنة بالأعضاء الظاهرة جعل ابن حزم يرتبه بعد الصدر الذي يصدر عنه الهواء المندفع وحددت الدراسات العلمية الحديثة موقعه بالضبط، فهو «يقع بين الحنجرة وأقصى الحنك، وهو عبارة عن تجويف في الخلف من اللسان يحدُّ به، وربما يسمّى الحائط الخلفي للحلق من الخلف، والحائط الخلفي ليس إلاّ عظام العنق مغطاة بما يكسوها من اللحم»².

¹ الرسائل 96/4.

² رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث، ص36.

6- الرئة: وقد عبر عنها ابن حزم بقوله: «وأنايب الرئة» وهو وصف على جانب كبير من الدقة والصحة ففي الرئتين تجاوب هي بمثابة أنايب ناقلة للهواء الذي يبعث الحياة في الجسم، ويدفع الهواء ماراً بالقصبة الذي يتسبب في حدوث الأصوات، وتعد الرئتان «مخزناً للهواء تتحركان تمدداً وانكماشاً بحسب حركة الحجاب الحاجز الموجود تحتها أسفل الصدر»¹، وبغير الرئتين لا تتم عملية النطق ولا تتم عملية التنفس بل ولا تكون الحياة.

7- الوتران الصوتيان: لم يشر إليهما ابن حزم ويسميها البعض بالحبال الصوتية «وهما عبارة عن رباطين من العضلات مرنين يشبهان الشفتين ويتصل بهما نسيج يقعان متقابلين على قمة القصبة الهوائية ويمتدان بشكل أفقي من الخلف إلى الأمام وعند ذلك يلتقيان بالبروز المسمى بتفاحة آدم، وقد تعمق المحدثون في دراستهما فحددوا طولهما البالغ حوالي 22 إلى 27 ملم وهما عند الرجال أطول من النساء ويتسمان بالغلظة والمتانة عند الرجال في حين يتسمان بالرقّة عند النساء والأطفال غير البالغين»².

3- خلاصة المقارنة بين ما جاء به ابن حزم وما قدمه المحدثون في جهاز النطق:

بعد أن قدمنا ما ذكره ابن حزم من أعضاء النطق وما ذكرته الدراسات الصوتية الحديثة فإننا نلاحظ أن ابن حزم إكتفى بذكر الأعضاء متحدثاً عن وظيفتها في الإنجاز الصوتي اللغوي بصفة عامة، أشار إلى ذلك في بداية حديثه من أنها تحدث إيقاع الكلمات، ولم يذكر الحنجرة ولا الوتران الصوتيان

¹ رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص27.

² حسام اليهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، ص27.

ولا التجويف الأنفي، على طريقة علماء الأصوات القدماء من أمثال الخليل وسيبويه وابن جنّي باستثناء ابن سينا الذي قدّم وصفا تشريحيًا للحنجرة فذكر غضاريفها ودورها في التّصويت.

إن المتصفح لجهود ابن حزم اللغوية المتناثرة في مؤلفاته¹ يلحظ أنه كان يذكر الجوانب الصوتية عرضًا عندما تفرض عليه القضية العلمية التي يكون بصدد عرضها وتحليلها والدفاع عنها، لقد كان ابن حزم يهتم في بداية حياته بالبحث اللّغوي وسرعان ما تحول إلى عالم فقه حمل لواء مذهب ودافع عنه دفاعًا مستميتًا ولاقى من أجله الأتعاب ومما لا شك فيه أن ابن حزم قد إستفاد كثيرًا من علماء آخرين ومفكرين سبقوه في مختلف أجناس العلم والمعرفة وربما كان من أبرزهم تأثيرًا في فكره الفلاسفة اليونان والعرب الذين تعددت معارفهم وتنوعت لديهم العلوم من فكر وفلسفة وفقه وأدب ولغة، بيد أن ابن حزم حاول أن يتناول معارفه بمنهج يخصه برزت من خلاله شخصيته التواقّة إلى العلا والطامحة إلى تسجيل اسمه في سجل العظماء.

4- مفهوم الصوت بين ابن حزم وعلماء الأصوات المحدثين:

أ- تمهيد:

يبدأ ابن حزم في حديثه عن الصوت البشري بتطبيق منهجه الذي يعتمد على ملاحظة الظاهر، ووصف الظاهرة كما هي، فهو يقسم الصوت قسمين.

الصوت الذي يؤدي وظيفة وهو الذي يدل على معنى وهذا ما ينبغي الإهتمام به والإشتغال به والصوت الذي لا يحصل لنا منه فائدة نفهمها، وهذا ما لا ينبغي العناية به، وقد راح يفسر ذلك، وهذا ما أوردهنا في الفصل الثاني من هذه المذكرة.²

¹ خصوصًا في الرسائل، وكتاب الأحكام في أصول الأحكام.

² ينظر الفصل الثاني من هذه المذكرة.

لقد إنطلق ابن حزم في تعريفه للصوت من معارفه الفلسفية حول طبيعة اللغة عند الإنسان، أهي وقف أم مواضعة أم تقليد لأصوات الطبيعة، وبعد أن ذكر جميع أعضاء النطق، مثل الفم والشفيتين والأسنان واللسان والرئة وهي معروفة للجميع ولذلك فإنها يمكن أن تدرس وتوصف ويتحدث عن نشاطها.

شرع في ترسيم مشاهداته وملاحظاته فجاء حديثه عن الصوت البشري ملامسا لما يعرف عند الدارسين المحدثين بعلم الصوت النطقي (الفسولوجي) الذي يعني بدراسة أعضاء النطق من أجل إنتاج أصوات الكلام أي أنه يهتم بعملية إنتاج الأصوات، وطريقة هذا الإنتاج.

ويعدُّ علم الأصوات النطقي من أقدم فروع علم الأصوات وأرسخها قدمًا وأكثرها حظًا من الانتشار في البيئات اللغوية كلها، فهو يدرس نشاط المتكلم بالنظر إلى أعضاء النطق، وما يعرض لها من حركات، فيعين هذه الأعضاء، وما يعرض لها من حركات، ويحدد وظائفها ودور كل منها في عملية النطق¹.

وقد كانت هذه الدراسات الصوتية في القديم مبنية في أساسها على هذا الجانب النطقي، بوصفه الوسيلة المتاحة، التي يمكن الإعتماد عليها في زمن لم تتوفر فيه الآلة و الأجهزة الفنية التي تساعد على الكشف عن الجوانب الأخرى للصوت اللغوي².

ب- الصوت السمعي عند ابن حزم:

عبّر ابن حزم عن الصوت السمعي بعد أن صدر من المرسل بقوله: «وهيأ لها الهواء المندفع بقرع اللسان إلى صمغ الأذان فتوصل بذلك نفس المتكلم مثل ما قد استبانته واستقرَّ فيها إلى نفس المخاطب وتنقله إليها بصوت مفهوم بقبول

¹ أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، لقاها، 1976، ص79.

² حسام البيهناوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب، ص16.

الطبع منها للغة إتفقا عليها فتستبين من ذلك ما قد إستبانته نفس المتكلم، ويخرج إليها بذلك مثل ما عندها لطفاً من اللطيف الخبير»¹.

واضح أن ابن حزم رسم القناة التواصلية التي تربط بين:

المرسل ← المرسل إليه ثم تَحَدَّثُ الأصوات الصادرة عن جهاز النطق صوب جهاز السمع، والرسالة التي هي محور العملية التواصلية، وهذا تقَدُّم في الفهم نلاحظه عند ابن حزم وقد إستعمل مصطلح "السمع" ليعبر به عن جهاز السمع ومعلوم أن الصمغ في الأذن هو الموطن الحقيقي الذي يستقبل الصوت ويوجهه إلى المخ لتفسيره.

لقد إعتد ابن حزم على الملاحظة الذاتية المباشرة في الحديث عن علاقة النطق بالسمع، فتوصل إلى تحقيق نتائج ملموسة والفضل يرجع إلى حسّه المرهف فحدد العلاقة العلمية بين المرسل والمتلقي وقد طابقت أراؤه ما توصلت إليه الدراسات الصوتية الحديثة شأنه في ذلك شأن العلماء العرب القدامى.

ج- الصوت السمعي عند علماء الأصوات المحدثين:

توصل العلماء في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة إلى تخصيص علم يدرس الجانب السمعي سمي بعلم الأصوات السمعي، ويعد أحد فروع علم الأصوات وهو ذو جانبين:

1- جانب عضوي فسيولوجي physiological

2- جانب نفسي psychological

فالجانب الأولى حددوا بموجبه أعضاء جهاز السمع والتي تحدثنا عنها سابقاً² والتي لفتت بال ابن حزم أثناء حديثه عن جهاز النطق وإستقبال الأصوات اللغوية لدى المتلقي.

¹ الرسائل 4 / 96.

² ينظر الفصل الثاني من هذه المذكرة.

والملاحظ في الدرس الحديث أن العلماء ما زالوا غير راضين على النتائج المحققة في هذا الفرع من علم الأصوات نظرا لحاجته إلى متخصصين في علم النفس الإدراكي من ناحية أخرى¹.

ويذكر روبنس مجموعة من الصعوبات التي تواجه الباحثين اللغويين في مجال هذا العلم وهي:

* إنتشار الموجات الصوتية على طبقة الأذن ووقع هذه الموجات على أعضاء السَّمع شيء لا يمكن إدراكه، إلا بواسطة أجهزة خاصة، وفي حال الاستعانة بهذه الأجهزة فيما لو أتحت للغوي، سوف نجد أنفسنا في النهاية غير قادرين على إدراك العملية السمعية، باستثناء عملية سماع الأصوات بوصفها ضوضاء لا أكثر ولا أقل.

* عملية السَّمع لا يمكن التحكم فيها، فليس الانسان بقادر على وقف هذه العملية وإستئنافها حين يشاء، على عكس عملية النطق التي يستطيع المتكلم أن يتحكم فيها بالقطع والإستئناف متى شاء.

* ما يجري في الجهاز السمعي وكثير من أعضائه أشياء بعيدة المنال بالنسبة للعين المجردة، وكذلك الحال بالنسبة للملاحظة الناتجة عن إستعمال ذلك النوع من الأجهزة والآلات التي يحتمل أن تتاح للباحث اللغوي العام².

أمّا فنديريس Vendryس فإنه يرى أن الصور السَّمعية التي يستقبلها السَّمع، ليس لها أي قيمة، إلا على أساس أنّ هذا السامع لديه القدرة على تحويلها إلى صور نطقية فعلية، ومن ثم يمكن أن يكون متكلمًا هو الآخر، وبمعنى آخر

¹ كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات، القاهرة، 1970، ص13.

² كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات ص13 - 14.

إنّ السامع متكلم بالقوة، إذن هو يمتلك ما حوّله المتكلم إلى أحداثٍ نطقية واقعية وبهذا يمكن الاستغناء عن علم الأصوات السمعي¹.

د- الكلمة صوت عند ابن حزم:

إنطلق ابن حزم في تعريفه للكلمة من الجانب المنطوق للغة إيماناً منه بأن الجانب الصوتي قبل الرسم الإملائي، فالكتابة سلوك حضاري أعقب الجانب الشفهي للغة، يقول في تعريفه للاسم والفعل: «الإسم صوت موضوع باتفاق لا يدل على زمان معين، وإن فرقت أجزاءه لم تدل على شيء معين»²، وبهذا التعريف يكون قد ربط الصوت بالدلالة وميزه عن الفعل والحرف وأوضح أنه مركب من أصوات وهاته الأصوات التي سماها أجزاء فإنها لا تحمل دلالة، وبذلك يكون قد لامس تعريف المحدثين إلى حد بعيد.

وقال في شأن الفعل: «وقال الأوائل، إنه يدل على زمن مقيم لأنك تقول صحَّ يصحُّ وهذه الكلمة صوت موضوع باتفاق أيضاً على ما قدمنا في الاسم لا يدل بعض أجزائها على معناها إلا أنها تدل على زمان مقيم كما ذكرنا»³، واضح أن ابن حزم كان مطلعاً على تعاريف النحاة الأوائل للفعل وقد صرح بكامل العبارة دون أن يذكر عالماً من علماء العربية، ويبيّن أنهم ربطوا الفعل بالزمن خلافاً للاسم، وقد أكّد هذا الرأي في النهاية.

إن الفعل عند ابن حزم صوت جاء بالاتفاق ليحمل دلالة وإن قسمت أجزاءه أي فونيماته فإنها لا تحمل دلالة، وقدّم لذلك أمثلة.

هـ- مفهوم الكلمة عند علماء الأندلس القدامى:

عرّف نحاة الأندلس الكلمة تعريفاً نحويّاً متأثرين بما أخذوه عن نحاة الكوفة والبصرة على السواء فقال ابن مالك (ت765هـ):

¹ كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات، ص15.

² الرسائل 4 / 187.

³ الرسائل 4 / 141.

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم¹

وهو يقصد الكلمة حيث قسمها إلى اسم، وفعل، وحرف، وربط الاسم والفعل بالدلالة، ثم حاولوا راشدين عند إنشاء هذا التقسيم «أن يبنوه على مراعاة اعتباري الشكل والوظيفة أو بعبارة أخرى المبنى والمعنى، إذ ينشئون على هذين الأساسين قيمًا خلافية يفرقون بها بين كل قسم وقسم آخر من الكلم كما يفعل اللغويون المحدثون في يومنا هذا حين يجرون مثل هذا التقسيم للكلم في لغة ما»²

و- الكلمة عند علماء الأصوات المحدثين:

إعتاد النحاة القدامى أن يقدموا لدراسة النحو العربي بباب "الكلام وما يتألف منه" فيعرفون الكلام والكلم والكلمة، وهو مبحث كثر فيه التفسير والتحليل، وأن صنيعهم هذا كان يستخدم المستوى الصوتي والمعطيات الصرفية المختلفة في التحليلات المتنوعة، إلا أن المحدثين جنحوا إلى تقسيم النشاط اللغوي إلى مستوياته بدءًا بالمستوى الصوتي ثم المستوى الصرفي فالمستوى النحوي ثم المستوى الدلالي، وبذلك تعدد تعريف الكلمة في كل مستوى، فللكلمة في المستوى المعجمي مفهوم وفي المستوى النحوي مفهوم، وهل نعتبر المباني الصرفية التي تتحقق بها الظواهر الموقعية وكذلك اللواحق الصرفية أجزاء كلمات أم نعتبرها كلمات مستقلة.

وللحديث عن الكلمة لا بد أن نفرق بين اللغة وبين الكلام، فاللغة مجموعة من الأنظمة والعلاقات بينما الكلام هو النطق بحسب قواعد هذه الأنظمة والعلاقات.

«إن الكلمة هي صورة صوتية مفردة في ذهن المجتمع، أو هي صورة وحين يلتقطها المتكلم يحولها من الصورة إلى الحقيقة الحسية سمعيًا من الأفراد

¹ ابن مالك، الألفية ص 12.

² حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ص 87.

(وهو طابع المعجم) إلى السياق الاستعمالي وهو طابع الكلام»¹، وعندما يتحرك اللسان وينطق الكلمة تتحول إلى لفظ، فهناك إذن فرق ما بين الكلمة واللفظ وهو فرق ما بين اللغة والكلام فاللغة صامتة وسكون والكلمة حس وحركة.² وهذا هو أحد أوجه الاعتراض على من عرّف الكلمة بأنها: «اللفظ المفرد» "أو لفظ وضع لمعنى مفرد" لأن هذا التعريف يغفل عن حقيقة الفرق بين الكلمة وبين اللفظ، وقد حاول بعض النحاة أن يعرف الكلمة بأنها "قول مفرد" على أن هذا التعريف لا يختلف عن الأول بل وقد يعقد الأمر لأن القول قد يكون في أكثر من لفظ واحد، «وتقاليد التحليل في اللغة العربية تجعل من مقول القول دائما في صورة جملة»³.

لذلك يمكننا الجزم بأن ابن حزم كان قد وقف على هذا الجدل فأورد تعريفه الذي نصّ أن الاسم - الذي هو كلمة طبعاً - عبارة عن صوت له معنى وأن جزءه لا يدل على معنى، وفي هذا يكون قد إقترّب من تعريف المحدثين الذين جاؤوا بمصطلحات المونيم monème واللكسيم lexem والفونيم phonème .

ز- التنظيم الفونيمي في اللغة العربية بين ابن حزم وعلماء الأصوات

المحدثين:

قد لا أكون مبالغاً إذا قلت أن ابن حزم حينما قال: «... وإن فرقت أجزاءه لم تدل على شيء معين»⁴ فقد كان يقصد بالأجزاء إما الحروف وما دام حديثه في الصوت فربما كان يقصد الأصوات المجزأة الصغرى وهو ما عرف عند علماء العرب المحدثين بالفونيمات.

¹ حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص317.

² حسان تمام، مناهج البحث في اللغة، ص93.

³ نفسه، ص97.

⁴ الرسائل 4 / 187.

«والفونيم هو أصغر وحدة لغوية غير قابلة للتقسيم لا تحمل أي دلالة وفونيمات اللغة تشكل فئة من العناصر اللغوية المتمثلة في عقل كل أعضاء المجتمع اللغوي»¹، ويشير العلماء إلى وظيفة الفونيم في تركيب اللغة وفي التمييز بين كلماتها ومنهم ترو بتسكوى الذي يرى أن الفونيم هو أصغر وحدة لغوية التي تستطيع بطرق التبادل أن تميز كلمة من كلمة أخرى، وهو يعرف الفونيم بأنها: الوحدات الصوتية التي يمكن تقسيمها إلى عناصر صوتية متتابعة من وجهة نظر اللغة المعنية التي يقوم الباحث بدراستها. وهو يقرر بأن الفونيمات علامات مميزة، ولا يمكن تعريفها إلا بالرجوع إلى وظائفها في تركيب كل لغة على حدة.²

ويعرف علماء مدرسة لينجراد الفونيم على أنه النموذج الصوتي الذي له القدرة على تمييز الكلمات وأشكالها، أو أنه عبارة عن الصور الصوتية المستقلة التي تميز الكلام المعبر عن غيره من الأحداث الأخرى.³

5- قضية نشأة اللغة بين ابن حزم وعلماء الأصوات المحدثين:

أ- عند ابن حزم:

حمل ابن حزم حدّ اللغة الذي أورده ابن جنّي من أنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» وراح يستعرض طريقة نشأتها فعرض نظرية التوقيف التي حمل لواءها جماعة من العلماء يتقدمهم أبو علي الفارسي ثم استعرض آراء ابن جنّي الذي دافع عن نظرية الاصطلاح.

وقد هاجم ابن حزم جالينوس الذي زعم أفضلية اللغة اليونانية على بقية اللغات وقدّ آراءه بحجج دامغة مفادها أن قوة أي لغة في قوة أصحابها، وبذلك يكون ابن حزم قد شارك العلماء في مناقشة أمر أصل اللغة وبدياتها التي حيرت

¹ حسام البيهتساوي، الدراسات الصوتية، ص158.

² نفسه، ص160.

³ نفسه، ص161.

العقل على أنه خالص في نهاية الأمر إلى النظرية الدينية التي تؤمن بالتوقيف في بداية الأمر ثم تعاقبت العصور فتطورت اللغة وتنوعت الألسن، وقد أبدى ابن حزم حيرته في أي لغة أوقفها الله تعالى على آدم عليه السلام، وقد جرّه هذا التخمين إلى حكم مفاده أن العربية والعبرية والسريالية تنبع من أصل واحد فقال: «إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريالية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير لغة واحدة تبديلت لتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نعمة أهل القيروان ومن القيرواني إذا رام نعمة الأندلسي ومن الخراساني إذا رام نغمتها»¹

ب- عند العلماء المحدثين:

عاود المحدثون الحديث عن نشأة اللغة في مباحثهم التي إتصلت بالتفريق بين اللغة والكلام والداد والمدلول، فانقسموا بدورهم في رأيهم إلى قسمين، يقول أحدهما "بالتوقيف" ومعناه أن اللغة هبة من الله تعالى للإنسان إجمالاً وتفصيلاً، «أي أن كل كلمة في اللغة جاءت من عند الله تعالى حتى "القصة" و "القصة" كما روى بعضهم واحتجوا في تبرير هذا القول بما ورد في الكتب المقدسة ومنه الآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾²، وقسم آخر يقول بالمواضعة ومعناها أن اللغة من وضع المجتمع تعارف الناس عليها رموزاً ومعاني وطرق تركيب ومخارج أصوات وهلمّ جرّاً من كل ما يصلح للتعارف»³.

وبذلك إجتز المحدثون هذه الجدلية أمداً طويلاً دون أن يجدوا من يفصل فيه الحكم وقد أضاف بعضهم نظرية المحاكاة التي ترى أن اللغة نشأت عن طريق محاكاة أصوات الطبيعة على اختلافها وتنوعها.

¹ الإحكام في أصول الأحكام، ص31.

² البقرة/31.

³ تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص37.

وقد عالج الدكتور تمام حسان الأمر بجدية فقال: «وأنا بدوري أقول إن اللّغة التي علّمها الله تعالى لآدم هي الإستعداد الفطري لإتخاذ لغة ما والتفاهم بواسطتها، فاللغة التي وهبها الله له هي ظاهرة إجتماعية وكان ديسوسير يسميها langage وليست لغة بعينها مما يسميه هو langue ولا كلاماً مما يسميه parole، وفي كتابي: "اللّغة بين المعيارية والوصفية" نقاش لطبيعة الرموز اللغوية وقد كان من الممكن أن إكتفى بهذه الإشارة لولا أنني أحبُّ هنا أن أضيف بعض التأكيد للعلاقة العرفية بين الكلمة وبين معناها»¹.

6- خلاصة الفصل:

لقد أعمل ابن حزم منهجه الظاهري في جميع مناحي معارفه التي أوردتها في كتبه، فعالج الجوانب الصوتية على أساس أنها المظهر الأول في اللّغة فتحدث عن جهاز النطق الذي به تتم صناعة الأصوات اللغوية إنطلاقاً من مخارجها، ثم تحدث عن طبيعة الصوت اللغوي فقسّمه إلى دال وغير دال، فأهمل مالا يؤدي وظيفة دلالية وإعتنى بالجانب الأول فجاء حديثه عن الكلمة وأقسامها مطابقاً لما إتفق عليه القدماء والمحدثون.

وهكذا جاء إجتهد ابن حزم مثمراً فقد سار في عرض معارفه معتمداً على المنقول الذي أخذه عن سابقيه وعلى المعقول الذي محص به الظواهر اللّغوية معتمداً على المشاهدات والتجارب والملاحظات. ويمكن حصر نتائج هذا الفصل في النقاط الآتية:

أ- عرف ابن حزم طبيعة الصوت البشري وقسّمه إلى دال وغير دال وأهمل مالم يدل وراح يدرس الأصوات الدالة.

ب- تعرض لعملية إنتاج الكلمة فوصف جهاز النطق ذاكراً أهم مكوناته.

¹ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص318.

- ج- تحدث عن عملية استقبال الصوت وخص جهاز السمع بالحديث.
- د- ثار على نظرية جالينوس الذي ادعى أفضلية اليونانية على بقية اللغات، وأرجع قوة اللغة إلى قوة ناطقها.
- هـ- عرض جانباً من الأطلس اللهجي للمنطقة التي ينتقل فيها بالأندلس.
- و- تعامل مع المصطلحات المتداولة ولذلك لم يلجأ إلى المزيد من الشروح والتفسير، وحاول بناءها بطريقة الخاصة.
- ز- اكتفى ابن حزم بتسمية أعضاء جهاز النطق أثناء حديثه عن مخارج الأصوات وطبيعة اللغة، بينما يحرص دارسو الأصوات من المحدثين على تخصيص فصل في صدر أبحاثهم الصوتية لوصف وشرح أعضاء آلة النطق.
- ح- غير أن عدم ذكر ابن حزم لأعضاء آلة التصويت على نحو ما هو في الدراسات الحديثة هذا لا يعني أنه لم يكن واعياً بوظيفة هذا الجهاز، وربما سكت عن ذكره لأن العمل يتوفر إلى مختص عارف باللغة ومخارج الأصوات وما يتعلق بها في أعضاء النطق، سماها القدماء بالأصول الذي ينبغي أن يكون على دراية بها كل من يخوض في قضايا اللغة.
- ط- يستعين المحدثون بالرسوم التوضيحية لبيان الحالة التي تشكلها أعضاء النطق في صناعة الأصوات كما استعانوا بعلم التشريح في إبراز مكونات كل عضو، بينما لا نجد ذلك عند ابن حزم ولذلك ما يبرره عنده.

الختمة

الخاتمة:

وبعد فقد توقفت في هذه الرحلة العلمية الشيقة مع العلامة ابن حزم ومجهوداته الصوتية التي اجتهدت في تتبعها ضمن مؤلفاته القيمة، ويحسن بي الوقوف حين أشرفت على الختام فأقول:

1- إن ابن حزم الأندلسي عالم جليل ومفكر كبير بحجم عصره الأندلسي الذي شهد إنبعاثا حضاريا فائقا، تمرد على الأوضاع السيئة في زمانه واجتهد من أجل ترسيخ مفاهيم دينية وحضارية كان يعتقد أنها تمثل المسار الاجتماعي والثقافي والسياسي الصحيح للأمة.

2- أن آراء ابن حزم في مختلف كتبه تدل على أصالة معدنه وعلى كرامات مزروعة في ذاته، وسعة إطلاع على علوم سابقه وعصره يملك شخصية تميل إلى الموضوعية والعفة والصدق والطموح.

3- ابن حزم الأندلسي عالم تعددت أوجه موهبته وتنوعت إبداعاته ترك كتباً بعضها يخاطب العقل وبعضها يخاطب الأفئدة.

4- وقف البحث في بدايته على الصرح العلمي الصوتي للعلماء العرب الأوائل في دراسة الأصوات وبين أن هذه الدراسة لم تكف بدراسة الأصوات من زاوية واحدة بل تعددت مجالاتها وجوانبها بحيث تشابهت إلى حد كبير.

5- ارتبطت دراسة الأصوات اللغوية عند ابن حزم ارتباطاً وثيقاً بمعطيات وظيفية مؤدية إلى غايات متنوعة ومختلفة تتعلق بالاستعمال اللغوي.

6- بين البحث أن ابن حزم حافظ على المصطلحات الصوتية العربية المعهودة في التراث الصوتي العربي القديم، وتابع علماء الأصوات السابقين إلى ذلك.

7- أوضح البحث قدرة ابن حزم على تتبع طبيعة الصوت البشري وأقسامه فبين الدال منه وغير دال والمفرد منه والمركب، وقدرة الإنسان على تمييز ما هو دال وما هو ضجيج لا طائل من ورائه.

8- اتخذ ابن حزم لنفسه منهجا لعرض عصاره إجتهاده في مجال الحديث عن الأصوات العربية متأثرا بظاهريته فلم يجنح إلى التعمق في التحليل وتجرد من كل إجتهاد فلسفي وإنما عمّد إلى الوصف الظاهري فتحدث عن الأصوات اللغوية وطرق تكوينها وارتباطها بالدلالات التي ترسخ لدى المتلقي بواسطة جهاز السمع.

9- حشر ابن حزم نفسه في أمر جدلية اللّغة بين التوقيف والإصطلاح، وجاء بأدلة كل فريق، ولم يخرج عن إجتهاد الأولين، ووقف إلى جانب التوقيف قادحا أنصار الاصطلاح واتخذ موقفا موضوعيا من مسألة التفاضل بين اللّغات فأرجع قيمة اللّغة للناطقين بها فبقدر تقدمهم في العلوم والفنون وتحضرهم في المعاش والإجتماع تكون للّغتهم المكانة المناسبة لدرجة هذا التقدم والنضج.

10- تظن ابن حزم إلى أثر الإستعمال اللّهي في التغييرات الصوتية فقد تعرضت اللّغة العربية في بلاد الأندلس إلى التبدل والتغيير في العديد من أصواتها بفعل أصوات اللّغات اللاتينية والبربرية والأرمينية والعبرية التي زاحمتها في الإستعمال.

11- بيّن البحث أن الوظائف الصوتية عند ابن حزم تمس ثلاثة مجالات في اللّغة: (الجوانب الدلالية والبلاغية والفصاحة).

12- سار ابن حزم في حديثه عن جهازي التصويت والسمع على طريقة الأولين فحدد مخارج الأصوات بعدد ابن جنّي وذكر مكونات الجهازين مركزاً على أهمها ذكراً وظائفاً.

13- إنتقد ابن حزم دعاة تفضيل لغة على لغة أخرى بفعل الإنتماء العقائدي فتهكم من إدعاء جالينوس بأن اللّغة اليونانية أفضل اللّغات وأن غيرها لغات الحمير كما فند إدعاء اليهود بأن اللّغة العبرانية لغة أهل الجنة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم (رواية حفص).

- 1- إبراهيم جمعة، قصة الكتابة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1981م.
- 2- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق علي محمد الضباع، دار الفكر، بيروت - لبنان، (دت).
- ابن جني:
- 3- الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الرابعة، 1990م.
- 4- سر صناعة الإعراب، تحقيق د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1985م.
- ابن حزم:
- 5- الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (دط)، (دت).
- 6- الأخلاق والسير، تحقيق عادل أبو المعاطي، دار المشرق العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1408هـ، 1988م.
- 7- رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1987م وتتضمن الرسائل التالية:
 - أ- رسالة في مراتب العلوم.
 - ب- التقريب لحد المنطق.
 - ت- تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين.
- 8- رسالة المفاضلة بين الصحابة، نشر وتحقيق سعيد الأفغاني، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1389هـ/ 1969م.

- 9- الفصل في المثل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر - عبد الرحمن عميرة، دار الجيل.
- 10- ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة جامعة دمشق، 1379هـ/ 1960م.
- 11- طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق وتقديم صلاح الدين القاسمي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى، 1985م.
- 12- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، منشورات دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأخيرة، 2000م.
- 13- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (دط)، 1398هـ/ 1978م.
- 14- ابن دريد، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1987م.
- 15- ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت ودار القلم، بيروت - لبنان، (دط)، (دت).
- 16- ابن السراج، الموجز في النحو، تحقيق مصطفى الشويمي وبن سالم دامرجي، طبعة مؤسسة أ. بدران، بيروت، 1965م
- 17- ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطيان ويحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1983م.
- 18- ابن طفيل، حي بن يقضان، تحقيق د.فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1992.
- 19- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (دط)، (دت).

- 20- أبوبكر بن باحة، النفس - تحقيق د. محمد صغير حسن، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1960م.
- 21- أبوبكر الجزائري، العلم والعلماء، دار الشهاب للطباعة والنشر، حي كشيدة - باتنة، 1405هـ/ 1985م.
- 22- أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، القسم الأول، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى، 1994م.
- 23- أبو الحسن علي بن جعفر السعيدي، التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، تحقيق الدكتور غانم قدوري حمد، مجلة المجمع العراقي، بغداد، 1985م.
- 24- أبو خلدون ساطع الحصري، في اللّغة والأدب، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، الطبعة الثانية، 1985م.
- 25- أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمذاني العطار، التمهيد في معرفة التجويد، تحقيق د. غانم قدور الحمد، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، 2000م.
- 26- أبو عمرو الداني: الشافية، تحقيق حسن أحمد عثمان، المكتبة المكية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1995م.
- 27- أبو عمرو عثمان بن سعيد الدوني، التجديد في الاتقان والتجويد، تحقيق د. غانم قدور الحمد، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، 1999م.
- 28- أبو هلال العسكري، الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق علي محمد البجاوي، (دط)، (دت).
- 29- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللّغوي، القاهرة، (دط)، 1976م.

- 30- إحسان عباس**، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، (دت).
- 31- الإمام محمد أبو زهرة**، ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1953م.
- 32- أنور خالد قسيم الزعبي**، ظاهرية ابن حزم الأندلسي نظرية المعرفة ومناهج البحث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، 1417هـ/ 1997م.
- 33- البخاري**، صحيح البخاري (الجامع الصحيح)، ضبط وترقيم د. مصطفى البغا، دار القلم ودار البخاري، دمشق، 1401هـ/ 1981م.
- 34- بسام بركة**، علم الأصوات العام، مركز الانماء القومي، لبنان، الطبعة الأولى، 1988م.
- **التواتي بن التواتي:**
- 35- القراءات وأثرها في النحو العربي والفقهاء الإسلامي**، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، (دت).
- 36- مفاهيم في علم اللسان**، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م
- 37- الجاحظ**، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1405هـ/ 1985م.
- 38- جرجي زيدان**، تاريخ آداب اللغة العربية، تقديم إبراهيم صحراوي، موفم للنشر، وحدة الرعاية - الجزائر، 1993م
- 39- حاجي مباركة**، الظاهرة الجمالية بين ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزالي من خلال طوق الحمامة وإحياء علوم الدين، ماجستير فلسفة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2004/ 2005م.

- 40- حسام البهنساوي**، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، (دت).
- **حسان تمام:**
- 41- اللغة العربية معناها ومبناها**، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، (دط)، (دت).
- 42- مناهج البحث في اللّغة**، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الأولى، 1986م.
- 43- حنفي بن عيسى**، محاضرات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثالثة، 1981م.
- 44- الخليل بن أحمد الفراهيدي**، العين، تحقيق د. محمد المخزومي ود. إبراهيم السمراي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م.
- 45- خليل إبراهيم العطية**، البحث الصوتي عند العرب، دار الجاحظ للنشر، بغداد، 1983م.
- 46- إخوان الصفا**، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، حرره بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، 1957م.
- 47- الرماني**، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، 1976م.
- 48- رمضان عبد التواب**، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1404هـ.
- 49- مدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث**، القاهرة، (دط)، 1985م.

- 50- زكرياء إبراهيم، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 2001م.
- 51- زيغريد هونكي، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1970م.
- 52- سلمى بنت محمد بن صالح هوساوي، المختصر المفيد في علم التجويد، مكة المكرمة، الطبعة الثالثة، 1433هـ.
- 53- سعيد الأفغاني، نظرات في لغة ابن حزم، دار الفكر، مطبعة البيان - بيروت، الطبعة الثانية، 1389هـ - 1969م.
- 54- سيوييه، الكتاب، تحقيق وشرح د. عبد السلام هارون، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408هـ، 1988م.
- السيوطي:
- 55- الإتقان في علوم القرآن، الحلبي، القاهرة، الطبعة الثالثة، (دت).
- 56- بغية الوعاة في الطبقات اللغويين والنحاة، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، 1399هـ - 1978م.
- 57- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة.
- 58- صلاح الدين محمد قناوي، التفكير الصوتي عند العرب بين الأصالة والتحديث، دار الفكر، دمشق، 2008م.
- 59- عبد الجليل مرتاض، دراسات لسانية في الساميات واللهجات العربية القديمة، دار هومة، الجزائر، (دت).
- 60- عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، الزهراء للإعلام العربي، (دط).

- 61- عبد الرحمن بدوي، الأخلاق عند كانط، وكالة المطبوعات، الطبعة الأولى، 1979م.
- 62- عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر، 2007م.
- 63- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، 1981م.
- 64- عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1408هـ / 1987م
- 65- عبد الفتاح إبراهيم، المدخل في الصوتيات، دار الجنوب للنشر، تونس.
- 66- عبد الكريم خليفة، ابن حزم حياته وآدابه، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، عمان - الأردن، (دت).
- 67- عبد اللطيف شرارة، ابن حزم رائد الفكر العلمي، منشورات المكتب التجاري للنشر والتوزيع، بيروت، (دط)، (دت).
- 68- عبد الله بن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق علي فوده، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1350هـ / 1932م.
- 69- عصام نور الدين، علم الأصوات اللغوية (الفونتيكا)، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1992م.
- 70- علاء جبر محمد، المدارس الصوتية عند العرب: النشأة والتطور، دار الكتب العلمية، (دت).
- 71- علي حسن مزيان، علم الأصوات بين القدماء والمحدثين، دار شموع الثقافة، ليبيا، الطبعة الأولى، 2003م.

- 72- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، نهضة مصر، القاهرة، الطبعة التاسعة، 2004م**
- 73- علي عبد الواحد وافي، المدينة الفاضلة للفارابي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (دت).**
- 74- غانم قدور الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2003م**
- 75- الفارابي، الموسيقى الكبير، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشب مراجعة وتصدير د. محمود أحمد الحنفي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (دت).**
- 76- فاروق النبهان، نظام الحكم في الإسلام، دار الفكر، دمشق، سوريا، (دت).**
- 77- فاطنة أبو الغوط، دواعي الإبدال في العربية، بحث، مجلة المعرفة، العدد 2009 /47.**
- 78- ماجد الفخري، ابن رشد فيلسوف قرطبة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960م.**
- 79- محمد سليم العوا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، 2006م.**
- 80- محمد طه الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية، دار النهضة العربية، بيروت، ص. ب 749، 1982م.**
- 81- محمد عزام، الأسلوبية (نهجا نقديا)، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، 1989م.**
- 82- محمد فؤاد عبد الباقي، مسائل نافع ابن الأزرق لابن عباس، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي، 1950م.**

- 83- محمد كمال بشر، علم اللغة العام "الأصوات"، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1975م.
- 84- محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1968م.
- 85- محمود حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1988م.
- 86- مكي بن أبي طالب، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دمشق، 1984م.
- 87- مكي درار، المجلد في المباحث الصوتية من الآثار العربية، دار الأديب، وهران، الطبعة الأولى، 2005م.
- 88- مكي درار وسعاد بسناسي، المقررات الصوتية، منشورات دار الأديب، وهران - الجزائر، (دت).
- 89- المهدي بوروية، ظواهر التشكيل الصوتي عند النحاة واللغويين العرب حتى نهاية القرن 03هـ، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2001 / 2002م.
- 90- نعمان بوقرة، النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2004م.
- 91- أرندنك، C. Van Arendonk، دائرة المعارف الإسلامية، (دط)، (دت).

فهرس الأعلام

| رقم الصفحات | الأسماء | الرقم |
|------------------------------|-------------------------|-------|
| 21 | إبراهيم بن موسى الشاطبي | 01 |
| 16، 14 | ابن أجروم | 02 |
| 28 | ابن باجة | 03 |
| 109، 21 | ابن الجزري | 04 |
| هـ، 4، 7، 8، 9، 98، 107، 125 | ابن جتي | 05 |
| أغلب الصفحات | ابن حزم | 06 |
| 13 | ابن خروف | 07 |
| 87 | ابن خلدون | 08 |
| 75 | ابن دريد | 09 |
| 16، 14 | ابن رشد | 10 |
| 80 | ابن السراج | 11 |
| ج | ابن سيده | 12 |
| هـ، و، 4، 10، 97 | ابن سينا | 13 |
| 13 | ابن الصائغ | 14 |
| 24 | ابن طفيل | 15 |
| 29، 28 | ابن عباد | 16 |
| 13 | ابن عصفور | 17 |
| 40 | ابن الكتاني | 18 |
| 129، 16، 14، 12 | ابن مالك | 19 |
| 16، 15، 14 | ابن مضاء القرطبي | 20 |
| 20 | ابن الناظر | 21 |
| 65 | ابن النغرلية | 22 |
| ب، 3، 13 | أبو الأسود الدؤلي | 23 |

| | | |
|--------------------|--|----|
| 13 | أبو بكر الجدامي المالقي | 24 |
| 39 | أبو الحسن بن علي الفارسي | 25 |
| 20 | أبو الحسن شريح بن محمد | 26 |
| 20 | أبو الحسن علي بن محمد بن سليم النوري الصفاقسي | 27 |
| 38، 37، 20، 16، 13 | أبو حيان الأندلسي | 28 |
| 13 | أبو حيان التوحيدي | 29 |
| 47 | أبو داود بن علي بن خلف البغدادي | 30 |
| 81 | أبو شامة | 31 |
| 20 | أبو عبد الله بن محمد عتيق بن علي التجيني الغرناطي | 32 |
| 132 | أبو علي الفارسي | 33 |
| 21، 20، 18 | أبو عمر الداني | 34 |
| 39 | أبو القاسم عبد الرحمن بن زيد الأزدي | 35 |
| 40 | أبو الوليد يونس بن الصفار | 36 |
| 69، 68 | أحسان عباس | 37 |
| 38، 37 | أحمد بن سعيد | 38 |
| 13 | أحمد بن محمد بن علي الأصبحي | 39 |
| 13 | الأخفش | 40 |
| 12، 11، 10 | إخوان الصفا | 41 |
| 67، 60، 25، 23 | أرسطو | 42 |
| 39 | آسين بلاثيوس | 43 |
| 23 | أفلاطون | 44 |
| و | أنور الزعبي | 45 |

| | | |
|--|---------------------------------|----|
| 134 | تمام حسان | 46 |
| 88 | جاكسون | 47 |
| 51 | جالينوس | 48 |
| 18 | الجزولي | 49 |
| 12 | جودي بن عثمان الطليطلي | 50 |
| 59، 15 | الحسن البصري | 51 |
| و | حسن مزيان | 52 |
| ب، د، 3، 4، 5، 6، 10، 15، 74، 106، 125 | الخليل بن أحمد الفراهيدي | 53 |
| 119 | داود بن علي الأصفهاني | 54 |
| 88 | دي سوسير | 55 |
| 116 | زيغرد هونكي | 56 |
| د | سعيد الأفغاني | 57 |
| 23 | سقراط | 58 |
| د، و، 4، 7، 13، 16، 75، 125 | سيبويه | 59 |
| 15 | الشماخ | 60 |
| 16 | شوقي ضيف | 61 |
| 46، 41 | صاعد الأندلسي | 62 |
| 18 | الصقيلي | 63 |
| 40 | الطبري | 64 |
| 15 | عبد الرحمن الحاج صالح | 65 |
| 20 | عبد الواحد أبي السداد المالقي | 66 |
| 19 | عبد الوهاب بن محمد القرطبي | 67 |
| و، 10 | علاء جبر محمد | 68 |
| 59، 17، 13 | علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) | 69 |

| | | |
|------------|------------------------|----|
| 39 | غارسيا غومس | 70 |
| و | غانم قدور الحمد | 71 |
| 10، 4 | الفارابي | 72 |
| 36 | الفتح بن خاقان | 73 |
| 76، 12 | الفراء | 74 |
| 99 | فرفوريس | 75 |
| 128 | فندريس | 76 |
| 75 | قطرب | 77 |
| 13، 12 | الكسائي | 78 |
| 68 | الكندي الفيلسوف | 79 |
| د | محمد بن اعمر | 80 |
| 75 | محمد المبارك | 81 |
| 109، 21 | مكي بن أبي طالب القيسي | 82 |
| د، و | المهدي بوروبت | 83 |
| 3 | نصر بن عاصم الليثي | 84 |
| د | نعمان بوقرة | 85 |
| 98 | وتني | 86 |
| 37، 36، 35 | يزيد بن أبي سفيان | 87 |

الفهرس

المقدمة _____ أ، ز

المدخل: ابن حزم وبوادر الدرر الصوتي عند علماء المشرق والأندلس

- تمهيد _____ 03

1- عند علماء المشرق: _____ 04

أ- جهود الخليل بن أحمد (ت170هـ) _____ 04

ب- جهود سييويه (ت181هـ) _____ 07

ج- جهود ابن جنّي (ت392هـ) _____ 07

د- جهود الفلاسفة العرب الصوتية _____ 10

2- عند علماء الأندلس: _____ 12

أ- البوادر اللغوية الأولى في الأندلس _____ 12

ب- أثر ابن حزم في توجيه المسار اللغوي _____ 14

ج- بواعث الدرر الصوتي في الأندلس _____ 17

د- مظاهر الجهود الصوتية عند الأندلسيين _____ 18

أ- عند القراء وعلماء التجويد: _____ 18

1- الظواهر الصوتية التي عالها علماء التجويد _____ 21

2- الفرق بين علم التجويد وعلم الأصوات _____ 22

3- مميزات علم القراءة وعلم التجويد _____ 22

ب- عند الفلاسفة الأندلسيين: _____ 23

| <u>الموضوع:</u> | <u>الصفحة:</u> |
|--|----------------|
| ب1- ابن طفيل | 24 |
| ب2- ابن رشد | 24 |
| * مفهوم المقطع الصوتي عند ابن رشد | 25 |
| * أثر النغم في تحديد الفهم عند ابن رشد | 28 |
| * تعريب الألفاظ الأجنبية عند ابن رشد | 29 |
| ب3- ابن باجة | 30 |
| 3- الخلاصة | 31 |
| الفصل الأول: ابن حزم شخصيته ومكانته العلمية | |
| 1- تمهيد | 35 |
| 2- مولده ونشأته | 35 |
| 3- تعلّمه | 40 |
| 4- وفاته | 40 |
| 5- آثاره العلمية | 41 |
| 6- شخصيته العلمية | 46 |
| أ- ابن حزم الفقيه | 46 |
| ب- ابن حزم اللغوي | 50 |
| ج- ابن حزم الشاعر | 52 |
| د- ابن حزم المفكر السياسي | 56 |
| هـ- ابن حزم الفيلسوف | 60 |

| | |
|-----|---|
| 63 | 7- رسائل ابن حزم التعريف والمضمون |
| | الفصل الثاني: الجهود الصوتية عند ابن حزم |
| 72 | المبحث الأول: الدراسات الأصواتية (الفونتيكية) |
| 72 | أ. جهاز النطق لدى الإنسان |
| 72 | 1- تمهيد |
| 73 | 2- جهاز النطق كما وصفه ابن حزم |
| 75 | 3- مخارج الأصوات |
| 86 | أ. جهاز السمع |
| 86 | 1- تمهيد |
| 87 | 2- التواصل من منظور ابن حزم |
| 89 | 3- أعضاء جهاز السمع في نظر ابن حزم |
| 92 | 4- علاقة الصوت بالسمع |
| 95 | المبحث الثاني: التشكيل الصوتي عند ابن حزم |
| 95 | 1- تمهيد |
| 95 | 2- أقسام الأصوات |
| 96 | 3- أبعاد الصوت اللغوي عند ابن حزم |
| 105 | 4- تفاعل الأصوات |
| 106 | 5- التعريف بالتغيرات الصوتية |

الصفحة:

الموضوع:

- 6- العوامل المؤثرة في التغيرات الصوتية 108
7- مظاهر التغيرات الصوتية عند ابن حزم 110

الفصل الثالث: جهود ابن حزم الصوتية في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة

- 1- تمهيد 119
2- جهاز النطق كما حدده ابن حزم ووصفه المحدثون 120
أ- ترتيب ابن حزم لأعضاء النطق 120
ب- ترتيب المحدثين لأعضاء النطق 121
ج- طبيعة جهاز النطق عند المحدثين 121
د- وظيفة أعضاء النطق بين ابن حزم والمحدثين 122
3- خلاصة المقارنة بين ما جاء به ابن حزم وما قدمه المحدثون 124
4- مفهوم الصوت بين ابن حزم وعلماء الأصوات المحدثين 125
أ- تمهيد 125
ب- الصوت السمعي عند ابن حزم 126
ج- الصوت السمعي عند علماء الأصوات المحدثين 127
د- الكلمة صوت عند ابن حزم 129
هـ - مفهوم الكلمة عند علماء الأندلس القدامى 129
و- الكلمة عند علماء الأصوات المحدثين 130
ز- التنظيم الفونيمي في اللغة العربية بين ابن حزم والمحدثين 131
5- قضية نشأة اللغة بين ابن حزم والمحدثين 132

الصفحة:

الموضوع:

| | |
|-----|------------------|
| 132 | أ- عند ابن حزم |
| 133 | ب- عند المحدثين |
| 134 | 6- خلاصة الفصل |
| 136 | الخاتمة |
| 140 | المصادر والمراجع |
| 150 | فهرس الأعلام |
| 155 | الفهرس |

المخلص:

تناول البحث جهود ابن حزم الصوتية التي مثلت محطة متقدمة في البحث العلمي في بلاد الأندلس المسلمة والتي أعطت العربية دفعا قويا مكنها من حمل حضارة حوض المتوسط.

وقد جاء إجهاده مثمرا حقق معارف لا تقل أهمية عما توصل إليه البحث الصوتي الحديث.

الكلمات المفتاحية:

ابن حزم - المنهج - الأصوات الوظيفية - تشكيل الصوت - الصوت الدال.

Résumé :

Des efforts ont été consenties par Ibn Hazm pour la recherche en matière des études phonologiques qui ont constitué une importante avancée dans le domaine scientifique et un essort énorme à la langue arabe en Andalousie en vue de la prise en charge de la civilisation en méditerranée.

Les résultats attendus grâce à ces efforts sont aussi importants que cette réalise dans le domaine de la recherche phonologique moderne.

Mot clés :

Ibn hazm – Méthode – Sons fonctionnels – Articulation – Son signifiant.

Abstract :

The aim of our study is to focus on the efforts of Ibn Hazm in the field of phonological studies, which constituted an important scientific reference that brought later great evolution the Arabic, Language so that to be able to hold the mediteranieau civilization.

The results achieved thanks to his fruitful efforts are as important as those realized by modern phonological researches.

Key words :

Ibn Hazm- Method- Functional sounds- Articulation- Significant.